القواعد الحسان في

أسرار الطاعة والاستعداد لرمضان

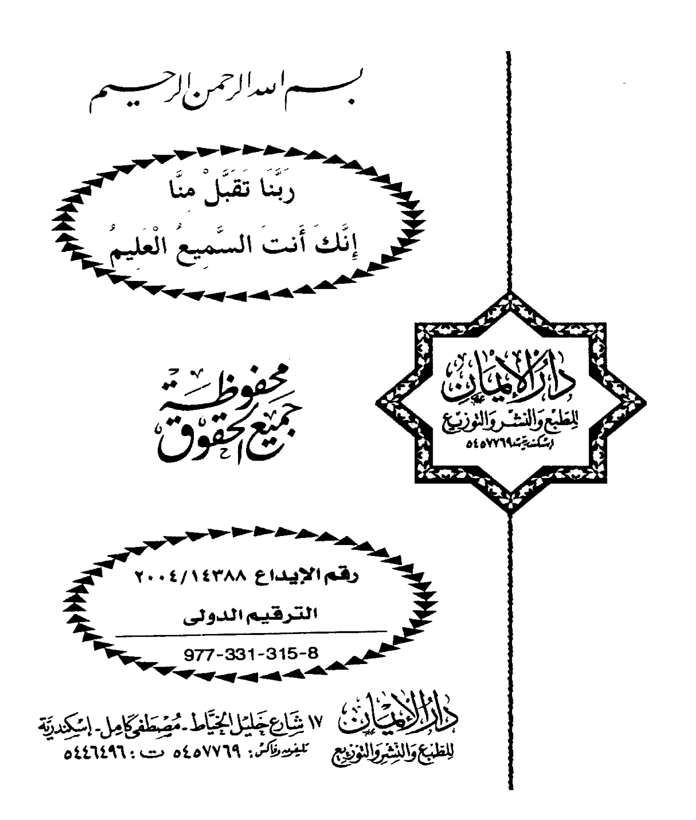
جمع وترتيب

رضا بن أحمد صمدي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين







بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٤٣٨٨
الترقيم الدولي
977-331-315-8

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦



إن الحمد لله تعالى نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهد الله تعالى فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحدَهُ لا شريك له، وأشهد أن محمَّداً عبدُهُ ورسوله.

أما بعدُ:

فإن أصدق الحديث كتابُ الله تعالى، وأحسن الهدى هدىُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

فقد دفع إليَّ أخونا في الله تعالى - رضا بن أحمد حمدي - بكتاب جمعه في الأسباب المعينة على تكميل العبادة لله عزَّ وجلَّ، وخصَّ منها الصيام الذي يحقق به العبد مرتبة الإحسان بدوام مراقبة الرحمن، ولذلك قال الله

عزَّ وجلَّ: «الصيامُ لي وأنا أجزي به» مع أن سائر العبادة لله عزَّ وجلَّ، وثوابُها للعبد، فرأيتُ في الكتاب نبذًا لطيفة من العلم، مع سهولة عباراته، وتجنُّب الدخولٍ في مضايق المسائل الخلافية، فالله أسأل أن ينفع به جامعه وقارئه، يوم تكون العاقبة للمتقين.

والحمد لله أولاً وآخرًا ظاهرًا وباطنًا،

وكتبه

أبو إسحاق الحويني الأثري

حامدًا الله تعالى، ومصليًا على نبينا محمدٍ

وآله وصحبه،

٢١ / رجب / ١٤١٩ هـ

مقدمة

الشيخ محمد حسين يعقوب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله. في عصر طغت فيه الماديات، يتشوف العبد المؤمن إلى روزنة يطل منها على روحانية الإسلام.

وفي عصر الإلكترونيات الذي ليس من مأساته أنه توصل إلى صناعة آلات تعمل كالإنسان ولكن المأساة أنها خلَّفت إنسانًا يعمل كالآلة فحتى العبادات صارت روتينية تحولت إلى عادات، وفقدت روحها في هذا العصر الذي أغرق في المادة ففقد الروح ... يأتينا هذا الكتيب اللطيف من تأليف أخينا الفاضل وشيخنا الهمام رضا آل صمدي حفظه الله.

وياله من فتى مُعَلَّم، صغير السن، غزير العلم، قليل اللحم، عظيم الفهم انتقى ألفاظ وأبواب هذا الكتاب من كلمات السلف، وعلى منهجهم كما تنتقي أطايب التمر

ليجلو للأبصار حقيقة العبادة، وهو وإن كان يتكلم في فرع من فروع العبادة وهي الصيام فإن من أسراره استيعاب وشمول الإسلام.

فإليك الكتاب تأمل أبوابه، وقلب صفحاته، واجتهد أن تعمل بكل حرف من حروفه، واصبر عليها تؤتك ثمارها.

وأخيراً فإني لست من أهل صناعة الكلام ولا تزويق الألفاظ ولست أهلاً أصلاً لأن أقدم لكتاب ذلك الفتى الفاضل، ففي كتابه غنية، وفيه كفاية، ويعلم الله أنني قد استفدت منه على مدار هاتين السنتين، ووفر عليَّ عناء بحث وجمع في بعض الموضوعات، وفتح لي أفكار وعناصر بعض الخطب والدروس.

فللطالب وللعامل وللمربي وللداعية والواعظ أنصح: هذا زاد طيب فاقبل ولا تخف وانهل واعمل واصبر وتقدم ولا تقف.

وكتب / محمد بن حسين يعقوب
عفا عنه علام الغيوب
في ليلة الخامس عشر من رجب ١٤١٩هـ
٥/١١/١٩٩٨م





مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، وأن محمَّداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً وعلى آله وصحبه وأزواجه وأتباعه إلى يوم الدين وبعد ...

فقد أجمع العقلاء على أن أنفس ما صرفت له الأوقات هو عبادة رب الأرض والسموات، والسير في طريق الآخرة، وبذل ثمن الجنة، والسعاية للفكاك من النار.

ولما كان هذا الطريق كغيره من الطرق والدروب تكتنفه السهول والوهاد والوديان والجبال والمفاوز ويتربص على جنباته قطاع الطرق ولصوص القلوب، احتاج السائر إلى

تلمس خِرِّيتٍ[١] يبصره الدروب الآمنة، والمسالك النافذة، ويعرفه مكامن اللصوص، وأفضل الأزمنة للسير، وأنسب الأوقات للجدّ في السفر، وقد كان هذا الخريت هو منهج سلفنا الصالح في النسك، وطرائقهم في السير إلى الله وعباراتهم في الدلالة عليه، كانت بحق خير مِعْوان على انتحاء جهة الأمان.

وهذا النسك السلفي العتيق، والمنهج السني الرشيد في التزكية، لا غنى عنه لكل طالب طريق السلامة، فلا عصمة لمنهج في مجمله إلا منهج السلف الصالح:

دع عنك ما قاله العصري منتحلاً

وبالعتيق تمسك قط واعتصمِ

ولما كانت الأزمنة الفاضلة من أنسب أوقات الجد والاجتهاد في الطاعة وكان شهر رمضان من مواسم الجود الإلهي العميم، حيث تُعْتَق الرقاب من النار، وتوزع الجوائز الربانية على الأصفياء والمجتهدين، كان لزامًا أن تتواصى

(١) الدليل الحاذق في معرفة الطرق والمسالك.

الهمم على تحصيل الغاية من مرضاة الرب في هذا الشهر، وهو من التواصي بالحق المأمور به في سورة العصر، وإذا كان دعاة الباطل واللهو والفجور تتعاظم هِمَمُهُمْ في الإعداد لغواية الخلق في هذا الشهر بما يذيعونه بين الناس من مسلسلات ورقص ومجون وغناء، فأَخْلِقْ بأهل الإيمان أن ينافسوهم في هذا الاستعداد، ولكن في البر والتقوى.

ولقد صامت أمتنا دهوراً، غير أن صومها لهذا الشهر ما كان يزيدها إلا بُعداً عن ربها ومليكها وحاكمها الحقيقي، فصار رمضان موسمًا مفرّغًا من مضمونه مجرداً من حقائقه، بل صار ميدانًا للعربدة وشغل الأوقات بما يغضب الكريم المتعال.

ولو تجهزت الأمة لهذا الشهر الفضيل وأعدت له عدته، وشمر الناس جميعًا سواعد الجد وشدوا مآزرهم في الطاعة لرأينا أمة جديدة تولد ولادة شرعية، وذلك بعد استعداد جاد ومخاض عولجت فيه الهمم والعزائم لتدخل في الشهر وهي وثّابة إلى الطاعات.

وهذه الرسالة نصيحة لعامة المسلمين بَثْثتُها غَيْرةً على حالهم مع الله في هذا الشهر، وجُهد مُقِلٍّ أبذله تأثّماً، ويعلم ربي ما هنالك.

هي منهاج في كيفية الاستعداد لشهر رمضان، وجدول أعمال تفصيلي لما ينبغي أن يقوم به سالك طريق الآخرة، إرشادات نفيسة من أئمة التربية والتزكية من السلف الصالح تقود المرء قيادةً حثيثة للوصول إلى درب القَبُول.

حرصْنا فيها أن تكون واقعية وعملية وتفصيلية، وقبل ذلك سلفية سنّية.

بيَّنَا فيها طرق الاستعداد للشهر الكريم بعزيمة قوية قادرة على الاجتهاد الحقيقي في الطاعة بدلاً من الأماني والأحلام، وأطلنا النَّفَس جداً في بيان أسرار الطاعات والعبادات وكيفية تحصيل اللذة منها، وسردنا جملة من العبادات المهجورة والطاعات المتروكة، ونصصنا على صفات بعض قطاع الطريق إلى الله، في حنايا هذه الرسالة حرصنا على ذكر بعض منازل السائرين ومقامات السالكين

في طريق الآخرة حتى تتواثب الأشواق في قلوب المتنسكين ليصلوا إلى ما وصل إليه القوم، ويحصّلوا المغفرة في شهر المغفرة والرحمة، وقد تركتُ للنفس سَجِيَّتها في سطر هذه المعاني ولم أتانق كثيراً في الترتيب والتبويب، ولكن حرصت على النقل من الكتب المعتمدة عند علمائنا وشيوخنا، وما نقلته عن الغزالي رحمه الله في الإحياء هذبته واختصرته ونقيته من كل ما يشوبه، والحكمة ضالة المؤمن، وحرصت على الاستدلال بالأحاديث الصحاح والحسان إلا بعض الأحاديث والآثار الضعيفة التي استأنست بها مع بيان ضعفها غالباً.

وأنا لك ناصحٌ أيها الحبيب: إذا أردت استفادة من هذا السفر فلا تمر على ألفاظه مر الكرام، بل جُلْ بخواطرك حول المعنى ومعنى المعنى، فلقد استلَلْتُ لك النقيَّ وانتقيت لك الأطايب، فإذا استدللت بآية فحُمْ حول حماها ثم طف في أعماق مداها، وإذا ذكرت لك حديثاً فتمثل نفسك كأنك جالس بين يدي النبيِّ ﷺ تسمعه وتتدبر عنه، وإذا رويت

لك سيرة عبقري من السلف فهَبْ نفسك ترمُقُهُ عن كَثَب كأنك في حضرته تشتار من رحيق كلماته، وبدون ذلك فلا تتعنَّ، فإنما صنَّفْناه لك لتتذوّق لا لتقول للناس قرأتُه.

واعلم أخيراً أن ما ذكرته لك في هذه الرسالة إن هي إلا محاولة لتكوين صورة عن الشخصية الربانية ذات العلاقة العامرة بإله الكون، والمهَّيئة لسيادة البشرية وإنقاذها من وَهْدَتِها.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين. وصلَّى الله على نبيِّنَا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه
المعتز بالله أبو محمد رضا بن أحمد صمدي
عفا عنه وعن والديه ومشايخه آمين
ظهر الخميس ١٧ صفر ١٤١٧هـ
الموافق ٧ يوليه ١٩٩٦م.

القاعدة الأولى

بعث واستثارة الشوق إلى الله

على مر الأيام والليالي يُخْلَقُ الإيمان في القلب وتصدأ أركان المحبة فتحتاج إلى من يهبك سربالاً إيمانيًا جديدًا تستقبل به شهر رمضان، وأصل القدرة على فعل الشيء معونة الله ثمَّ مؤونة العبد، ونعني بالمؤونة: رغبته وإرادته، فعلى قدر المؤونة تأتي المعونة.

وفي الحديث القدسي: «إذا تقرب العبد إليَّ شبرًا تقربتُ إليه ذراعًا، وإذا تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه البخاري.

فالمبادرة من العبد ثمَّ الإجابة حتمًا من الربِّ: ﴿ **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿ **فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٥].

فلابد من إثارة كوامن شوقك إلى الله عزَّ وجلَّ حتى

تلين لك الطاعات فتؤديها ذائقًا حلاوتها ولذتها، وأية لذة يمكن أن تحصلها من قيام الليل ومكابدة السهر ومراوحة الأقدام المتعبة أو ظمأ الهواجر أو ألم جوع البطون إذا لم يكن كل ذلك مبنيًا على معنى: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ [طه: ٨٤](١)؟! ومن لبى نداء حبيبه بدون شوق يحدوه فهو بارد سمج، دعوى محبته لا طعم لها.

لا جرم كان من دعاء النبيِّ ﷺ في صلاته: «وأسألك الرضا بالقضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ...» رواه النسائي بسندٍ صحيح.

وشوقك لربك ولإرضائه أفناه رَيْن الشبهات والشهوات وأهلكته جوائح المعاصيَ ومرور الأزمنة دون كدح إلى الله،

(١) قال أبو حيان الأندلسي رحمه الله: (لما نهض موسى عليه السلام ببني إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن حيث كان الموعد أن يكلم الله موسى بما فيه شرف العاجل والآجل، رأى على وجه الاجتهاد أن يتقدم وحده مبادرًا إلى أمر الله وحرصًا على القرب منه وشوقًا إلى مناجاته) اهـ: البحر المحيط (٦/٢٦٦).

فتحتاج يا باغيَ الخير إلى بعث هذا الشوق من جديد لو كان ميتاً، أو استثارته إن كان موجوداً كامناً.

عوامل بعث الشوق إلى الله

١ـ مطالعة أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وتدبر كلامه وفهم خطابه فإن من شأن هذه المطالعة والفهم والتدبر فيها أن يشحذ من القلب همةً للوصول إلى تجليات هذه الأسماء والصفات والمعاني، فتتحرك كوامن المعرفة في القلب والعقل ويأتي عندئذٍ المدد[١].

وتأمل قصة أبي الدحداح في فهمه كلام ربه كيْ حرك أَرْيَحِيَّتهُ وألبسه حبَّ البذل.

فعن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] قال أبو الدحداح الأنصاري: وإن الله يريد منَّا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله رسول الله يده، قال فإني أقرضت

(١) راجع لزامًا كلام ابن القيم في الفائدة السادسة والثلاثين من فوائد الذكر من كتابه الطيب «الوابل الصيِّب».

ربِّي حائطي، قال: حائطه له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها. قال فجاء أبو الدحداح فنادى يا أم الدحداح! قالت: لبيك، قال: أخرجي من الحائط فإني أقرضته ربِّي عزَّ وجلَّ، وفي رواية أخرى أنها لما سمعته يقول ذلك عمدت إلى صبيانها تُخْرِجُ ما في أفواههم وتنفض ما في أكمامهم فقال النبيُّ ﷺ: «كم من عِذْقٍ رَدَاحٍ في الجنة لأبي الدحداح»(١).

وتأمل عاك الله من عَطَنِ الشبهات كيف فهم الصحابي من كلام الله عزَّ وجلَّ المعنى الظاهر بدون أن يكون في قلبه تردد أو تهيب لأن شجرة إيمانه قامت على ساق التنزيه(٢).

٢ـ مُطالعة مِنن الله العظيمة وآلائه الجسيمة فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها ولذلك كَثُرَ في القرآن سَوْقُ آيات النعم الخَلْق والفضل تنبيهًا لهذا المعنى، وكلما ازددت علمًا بنعم الله عليك كلما ازددت شوقًا لشكره

(١) العذق من النخل كالعنقود من العنب، رَدَاح: ثقيل لكثرة ما فيه من التمر، انظر «الإصابة» في (٧/٥٧) و«صفة الصفوة» (١/٦١٧).

(٢) لابن القيم رحمه الله مقالات رائقة حول كثير من الأسماء والصفات جمعها بعضهم في كتاب مستقل، وللغزالي رسالة اختصرها النبهاني في «مختصر المقصد الأسنى» لا تخلو من هنات تظهر لممارس الكتاب والسنة.

علي نعمائه.

٣- التحسر على فوات الأزمنة في غير طاعة الله، بل قضاؤها في عبادة الهوى. قال ابن القيم: وهذا اللحظ يؤدي به إلى مطالعة الجناية، والوقوف على الخطر فيها، والتشمير لتداركها والتخلص من رقها وطلب النجاة بتمحيصها. اهـ.

٤- تذكر سبق السابقين مع تخلفك مع القاعدين يورثك هذا تحرقًا للمسابقة والمسارعة والمنافسة، وكل ذلك أمر الله به، قال تعالى: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ** .. ﴾[آل عمران: ١٣٨] ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ** .. ﴾[الحديد: ٢١] وقال: ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ** (٢٦) ﴾[المطففين: ٢٦].

واعلم - يا مريد الخير - أن بعث الشوق وظيفة لا ينفك عنها السائر إلى الله عزَّ وجلَّ، ولكن ينبغي مضاعفة هذا الشوق قبل شهر رمضان لتُضاعف الجهد فيه، وهذا الشوق نوع من أنواع الوقود الإيماني الذي يُحفّز على الطاعة، ثم به يذوق المتعبد طعم عبادته ومناجاته.

ومجالات الشوق عندك كثيرة أعظمها وأخطرها الشوق إلى رؤية وجه الله عزَّ وجلَّ، ويمكنك أن تتمرن على قراءة هذا الحديث مع تحديث نفسك بمنزلتها عند الله، وهل ستنال شرف رؤيته أم لا؟ قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيِّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنة وتنجنّا من النار؟ فَيُكْشفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم». رواه مسلم.

وفي مجالات الشوق: الشوق إلى لقاء الله وإلى جنته ورحمته ورؤية أوليائه في الجنة وخاصة الشوق للقاء النبيِّ ﷺ في الفردوس الأعلى.

واعلم أن لهذا الشوق لصوصًا وقطاعًا يتعرضون لك، فاحذر الترفه (وخاصة في شهر رمضان) واحذر فتنة الأموال والأولاد والأزواج، اتركهم وراءك ولا تلتفت وامض حيث تؤمر، واجعل شعارك في شهر رمضان: ﴿ **هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ** ﴿٨٤﴾ ﴾ [طه: ٨٤].

فحيَّهَلا إن كنت ذا همة فقدْ حدا بك حادي الشوق فاطْوِ المراحلا
ولا تنتظر بالسير رفقة قاعدٍ وَدَعْهُ فإن العزمَ يكفيك حاملا

القاعدة الثانية

معرفة فضل المواسم ومنة الله فيها وفرصة العبد منها

قال ابن رجب رحمه الله: وجعل الله سبحانه وتعالى لبعض الشهور فضلاً على بعض، كما قال تعالى: ﴿ **مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [التوبة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿ **شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ** ﴾ [البقرة: ١٨٥] كما جعل بعض الأيام والليالي أفضل من بعض، وجعل ليلة القدر خيراً من ألف شهر، وأقسم بالعشر وهي عشر ذي الحجة على الصحيح (وما في هذه المواسم الفاضلة موسمٌ إلا ولله تعالى فيه وظيفة من وظائف طاعته، يُتقرَّب بها إليه، ولله فيه لطيفة من لطائف نفحاته، يصيب بها من يعود بفضله ورحمته عليه، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات،

وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات، وقد خرّج ابن أبي الدنيا والطبراني وغيرهما من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم» (ضعيف الجامع).

وفي الطبراني من حديث محمد بن مسلمة مرفوعًا: «إن لله في أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها، فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدًا» (صحيح الجامع).

وفي مسند الإمام أحمد عن عقبة بن عامر عن النبيِّ ﷺ قال: «ليس من عمل يوم إلا يُختم عليه» (صحيح الجامع).

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن مجاهد قال: ما من يوم إلا يقول: ابنَ آدم قد دخلْتُ عليك اليوم ولن أرجع إليك بعد اليوم فانظر ماذا تعمل فيّ، فإذا انقضى طواه، ثم يختم عليه فلا يفك حتى يكون الله هو الذي يَفُضُّ ذلك الخاتم

يوم القيامة، ويقول الله حين ينقضي: الحمد لله الذي أراحني من الدنيا وأهلها، ولا ليلةٍ تدخل على الناس إلا قالت كذلك، وبإسناده (أي ابن أبي الدنيا) عن مالك بن دينار.

وعن الحسن قال: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم، يقول: يا أيها الناس: إني يوم جديد وإني على ما يُعمل فيّ شهيد، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة. وعنه أنه كان يقول: يا ابن آدم اليومُ ضيفك، والضيفُ مرتحل يحمدَك أو يذمُّك، وكذلك ليلتك. وبإسناده عن بكر المُزني أنه قال: ما من يوم أخرجه الله إلى أهل الدنيا إلا يُنادي: ابن آدم اغتنمني لعله لا يوم لك بعدي، ولا ليلةٍ إلا تُنادي: ابن آدم اغتنمني، لعله لا ليلة لك بعدي.

وعن عمر بن ذرٍّ أنه كان يقول: اعملوا لأنفسكم رحمكم الله في هذا الليل وسواده، فإن المغبونَ من غبن خير الليل والنهار، والمحرومَ من حرم خيرَهُمَا، وإنما جُعلا سبيلاً للمؤمنين إلى طاعة ربهم ووبالاً على الآخرين للغفلة عن

أنفسهم، فأَحْيُوا لله أنفسَكم بذكره، فإنما تحيا القلوب بذكر الله. اهـ[١].

واعلم – رحمني الله وإياك – أن معرفة فضل المواسم يكون بمطالعة ما ورد فيها من فضل وبما يحصل للعبد من الجزاء إذا اجتهد.

ويمكنك مطالعة هذه النصوص والآثار في الكتب المعنية بالفضائل كرياض الصالحين للنووي والترغيب والترهيب للمنذري ولطائف المعارف لابن رجب.

---

(١) «لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف» (ص ٤٠) فما بعدها بتصرف يسير.

القاعدة الثالثة

تمارين العزيمة والهمة

إذا كان الأصوليون يعرّفون العزيمة بأنها ما بُنَيت على خلاف التيسير كالصوم في السفر لمن أطاقه، وعدم التلفظ بكلمة الكفر وإن قتل، فإن العزيمة عند أهل السلوك لها حظ من هذا المعنى، فالعزيمة أو العزم عندهم هو استجماع قوى الإرادة على الفعل.

وكأن صاحب العزيمة لا رخصة له في التخلف عن القيام بالمهمة، بل هو مطالب باستجماع قوته وشحذها حتى يطيق الأداء.

وغالب من تكلم في هذا الباب لم يشر إلى أهمية تمارين العزيمة أي تحفيز الهمة لِتَقْوَى على المجاهدة في الأزمنة الفاضلة، مع أن الشرع أشار إلى ذلك باستحباب صوم شعبان لتتأهب النفس وتقوى على صيام رمضان بسهولة.

وكـان من هدي النبيِّ ﷺ في قيـام الليل أن يبـدأ بركعتين خفيفتين حتى تتريض نفسه ولا تضجر.

وأشـار الشـاطبي في الموافـقـات إلى أن السنن والنوافل بمثابة التوطئة وإعداد النفس للدخول في الفريضة على الوجه الأكمل.

وكثير من الناس يعقد الآمال بفعل جملة من الطاعات في شهر رمضان فإذا ما أتى الشهر (أصبح خبيث النفس كسلان) وذلك لأنه لم يحل عقدة العادة والكسل والقعود.

والعزيمة لا تكون إلا فيما لا تألفه النفوس أو لا تحبه فتحتاج النفس إلى المجاهدة في معرفة فضل ذلك العمل المكروه إليها ثم في مجاهدة واردات العجز والكسل، ولذلك قال الله عن الجهاد: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وتمارين العزيمة من صميم القيام بحق شهر رمضان وتحصيل المغفرة فيه لأنه لا قوة للنفس ما لم تُعد العدة للطاعة قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً**

وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة : ٩].

قال ابن الخراط - في كتابه الصلاة والتهجد - كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز - رحمهما الله -: أما بعد، ، فإنه من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر، ومن نظر العواقب نجا، ومن أطاع فهو أفضل، ومن حَلُم غنم، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فَسَلْ، وإذا غضبت فأمسك: واعلم أن أفضل الأعمال ما أُكرهت النفسُ عليه. وقد اعترض بعض العلماء بظاهر قول رسول الله ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المُنْبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» [١]، وبقوله ﷺ: «اكلفوا من العمل ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا» [٢]، وبالحديث الآخر: «ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فَتَر أو كسل فليقعد» [٣]، ولم يُرِدْ عليه السلام ألا تعمل حتى تنشط بحسّك للعمل،

---

(١) رواه البيهقي في السنن وفيه ضعف.
(٢) (٣) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

وحتى تقبل عليه وتبادر إليه، فإن النفس كسلى ثقيلة عن فعل الخير، بطيئة النهوض إلى أعمال البر، فلو لم تصلّ مثلاً حتى تدعوك نفسك للصلاة وحتى تنشط إليها وتخف عليها لما صليت إلا قليلاً، وربما لم تصل معها أبداً، ولا قامت لك عن فراشها ولا تركت راحَتها ولا لذيذَ نومها.

وإنما أمر عليه السلام بالرفق وحذر من الإفراط في التعب الذي يقطع بصاحبه ويُقعده، وفي قوله ﷺ: «اكْلَفوا من الأعمال ما تطيقون» ما يدل على الاجتهاد ويبيح أخذ النفس بما تكره منه، فإن الإنسان قد يكره على الضرب (النوع) من العمل ويكسَل عنه، فإذا كُلِّفَهُ أطاقه وقام به وتحمل المشقة فيه مع كراهيته له وكسله عنه، فلابد من الحمل على النفس وأخذها بالجد والكد، وتخويفها بأن تُسْبَقَ إلى الله عزَّ وجلَّ، وتحذيرها ن أن يُستأثر دونها بما عند الله، وأن يَصلَ العمل بالعمل والاجتهاد حتى يَصلَ إلى الحد الذي حذَّر منه رسول الله ﷺ وهو الذي يخاف معه الانقطاع والانبتات، وفي الخبر: «الخيرة عادة والشر

لحاجة »(١)، وقال أبو الدرداء لرجل يقال له صَبيح: « يا صبيح تعود العبادة فإن لها عادة، وإنه ليس على الأرض شيءٌ أثقل عليها من كافر». وأما قوله ﷺ: « ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر أو كسل فليقعد » فما أراد – والله أعلم -- أن تصلي ما دمت على نشاط فإذا خالطك الكسل أن تترك الصلاة، وإنما أراد ﷺ الكسل الذي لايقدر معه صاحبه على شيء إلا بعد جهد جهيد وحمل على النفس شديد، حتى لو قيل مثلاً صلِّ وخذ كذا وكذا – لثواب حاضر يُعرض عليه ويُرغّب فيه – لم يقدر فهذا هو الكسل الذي يُنهَى صاحبه عن العمل معه مخافة الانقطاع وترك العمل، هذا أو نحوه، والله أعلم، والدليل على هذا القول تكلُّفه – عليه السلام – الصلاة حتى تشققت قدماه، وهذا إنما هو في النافلة وأما الفريضة فتُصلّى على كل حال، في الصحة والمرض يصليهما قائمًا أو قاعداً أو مضطجعًا أو مكتوفًا أو كيف كان وكيفما أمكن اهـ. من كتاب الصلاة والتهجد لابن الخراط(٢).

---

(١) رواه ابن حبان مرفوعًا بإسناد حسن. (٢) « الصالة والتهجد » (ص ٣٠٥).

ولعل هذا التحقيق النفيس قد جلّى لك كوامن أسرار، فكن منها على ذُكْر فإن هذا المقام من أنفس ما تجده في كتب الزهد والرقائق والسلوك.

(لقد فقه سلفنا الصالحون عن الله أمره. وتدبروا في حقيقة الدنيا، ومصيرها إلى الآخرة، فاستوحشوا من فتنتها، وتجافت جنوبهم عن مضاجعها، وتناءت قلوبهم من مطامعها، وارتفعت همتهم على السفاسف فلا تراهم إلا صوّامين قوّامين، باكين والهين، ولقد حفلت تراجمهم بأخبار زاخرة تشي بعلوّ همتهم في التوبة والاستقامة، وقوة عزيمتهم في العبادة والإخبات، وهاك طرفًا من عباراتهم وعباداتهم التي تدل على تشميرهم وعزيمتهم وهمتهم:

قال الحسن: من نافسك في دينك فنافسه، ومن نافسك في دنياه فألقها في نحره.

وقال وهيب بن الورد: إن استطعت ألا يسبقك إلى الله أحد فافعل، وقال الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان التركستاني: ما بلغني عن أحد من الناس أنه تعبد عبادة إلا تعبدت نظيرها وزدت عليه.

وقال أحد العباد: لو أن رجلاً سمع برجل هو أطوع لله منه فمات ذلك الرجل غماً ما كان ذلك بكثير.

وقيل لنافع: ما كان ابن عمر يفعل في منزله؟ قال: الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما.

وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة الجماعة صام يومًا، وأحيا ليلة، وأعتق رقبةً.

واجتهد أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قبل موته اجتهاداً شديداً، فقيل له: لو أمسكت أو رَفقت بنفسك بعض الرفق؟ فقال: إن الخيل إذا أُرسلت فقاربت رأسَ مجراها أخرجت جميع ما عندها، والذي بقيَ من أجَلي أقلُّ من ذلك، قال: فلم يزل على ذلك حتى مات.

وعن قتادة قال: قال مورق العجلي: ما وجدت للمؤمن في الدنيا مثلاً إلا مثل رجلٍ على خشبة في البحر، وهو يقول: «يارب يارب» لعل الله أن ينجيه.

وعن أسامة قال: كان من يرى سفيان الثوري يراه كأنه في سفينة يخاف الغرق، أكثر ما تسمعه يقول: «يارب سلّم سلّم».

وعن جعفر: دخلنا على أبي التياح نعوده، فقال: والله

إنه لينبــغي للرجـل المسلـم أن يزيده مــا يرى في النـاس من التهاون بأمر الله أن يزيده ذلك جداً واجتهاداً، ثـم بكـى.

وعن فاطمـة بنت عبد الملك زوج أمير المؤمنين عـمر بن عبد العزيز رحـمه الله قـالت: ما رأيـت أحداً أكـثر صلاة ولا صـيـامًـا منه ولا أحـداً أشـد فَـرقًـا من ربه منه، كـان يـصلي العشاء ثـم يجلس يبكي حتى تغلبه عيناه ثـم ينتبه فلا يزال يبكي تغلبه عيناه، ولقد كان يكون معي في الفراش فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كـما ينتفض العصـفـور من الماء ويجلس يبكي فأطرح عليه اللحاف.

وعن المغـيرة بن حكـيم قـال: قـالت فـاطمـة بنت عـبد الملك يا مـغـيرة، قـد يكون من الرجـال من هو أكـثـر صـلاة وصياماً من عمر ابن عبد العزيز ولكني لم أر من الناس أحداً قط كـان أشـد خوفًـا من ربه مـن عـمـر، كـان إذا دخل البـيت ألقى نفسـه في مسجـده، فلا يزال يبكي ويدعو حتى تغلبه عيناه، ثـم يستقيظ فيفعل مثل ذلك ليلته جمعاء.

وعن أبي عبـيدة بن عقبة بن نافع أنه دخل على فاطمة بنت عبـد الملك فقـال: ألا تخـبـريني عن عـمـر؟ قـالت: ما أعلم أنه اغتسل من جنابة ولا احتلام منذ استُخلف.

وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة، ويصوم في الحر حتى يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذب نفسك؟ فيقول: كرامتهَا أريد، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلي حتى يسقط، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له: إن الله عزَّ وجلَّ لم يأمرك بكل هذا، فقال: إنما أنا عبدٌ مملوك لا أدع من الاستكانة شيئًا إلا جئت به.

وقيل لعامر بن عبد الله: كيف صبرك على سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار؟ وليس في ذلك خطير أمر. وكان إذا جاء الليل قال: أَذْهَبَ حرُ النار النومَ، فما ينام حتى يصبح.

وعن الحسن قال: قال عامر بن قيس لقوم ذكروا الدنيا: وإنكم لتهتمون؟ أما والله لئن استطعت لأجعلنهما همًا واحدًا، قال: ففعل والله ذلك حتي لحق بالله.

وعن أحمد بن حرب قال: يا عجبًا لمن يعرف أن الجنة تُزيَّن فوقه والنار تُسَعَّرُ تحته كيف ينام بينهما؟

وكان أبو مسلم الخولاني قد علّق سوطًا في مسجد بيته يخوّف به نفسه، وكان يقول لنفسه: قومي فوالله لأزحفن بك زحفًا، حتى يكون الكلل منكِ لا مني، فإذا دخلت الفترة (الفتور) تناول سوطه وضرب به ساقه، وقال: أنت أولى بالضرب من دابتي، وكان يقول: أيظن أصحاب محمَّد ﷺ أن يستأثروا به دوننا؟ كلا والله لتُزُاحمَنَّهم عليه زحامًا حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً.

وكان منصور بن المعتمر إذا رأيتَه قلتَ: رجلٌ أصيب بمصيبة، منكسر الطرف، منخفض الصوت، رطْب العينين، إن حركته جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمه: ماذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامته لا تسكت؟ لعلك يا بني أصبتَ نفسًا، لعلك قتلت قتيلاً، فيقول: يا أمه، أنا أعلم بما صنعتْ نفسي.

وقال هُشيم تلميذ منصور بن زاذان: كان لو قيل له إن ملك الموت على الباب ما عنده زيادة في العمل.

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام، وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له: القيامة غداً ما وجد

مزيداً، وكان يقول: اللَّهُمْ إنِّي أحب لقاءك فأحب لقائي.

وعن موسى بن إسماعيل قال: لو قلت لكم إني ما رأيت حماد بن سلمة ضاحكًا قط صدقْتُكم، كان مشغولاً بنفسه، إما أن يحدث وإما أن يقرأ وإما أن يسبح وإما أن يصلي، كان قد قسم النهار على هذه الأعمال.

وعن وكيع قال: كان الأعمش قريبًا من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى، واختلفت إليه أكثر من ستين سنة فما رأيته يقضي ركعة.

وعن حماد بن سلمة قال: ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عزَّ وجلَّ فيها إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا أو عائدًا أو مشيعًا لجنازة أو قاعدًا في المسجد، قال: فكنَّا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عزَّ وجلَّ.

فهؤلاء هم أنموذج السالكين الصادقين.

فتشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاحُ

وهذه كانت سيرتهم في مجاهدة النفس ومغالبة الهوى فاستحضرها عند هبوب ريح الكسل وسل الله حُسن العمل.

القاعدة الرابعة
نبذ البطالة والبطالين
ومصاحبة ذوي الهمم

ليس هناك أشأم على السائر إلى الله من البطالة وصحبة البطالين، فالصاحب ساحب، والقرين بالمقارَن يقتدي.

(والبرهان الذي يعطيه السالكون علامة لصدقهم أنهم يأبون إلا الهجرة والانضمام إلى القافلة ويذرون كل رفيق يثبطهم ويزين لهم إيثار السلامة، ينتفضون ويهجرون كل قاعد، ويهاجرون مع المهاجرين إلى الله، ويطرحون أغلال الشهوات وحب الأموال عن قلوبهم)[١].

ولما أراد قاتل المائة أن يتوب حقًا قيل له: اترك أرضك فإنها أرض سوء واذهب إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم. متفقٌ عليه. فلابد لمن أراد تحصيل المغفرة من شهر رمضان أن يترك المُخْلِدين إلى الأرض ويزامل ذوي الهمم العالية كما قال الجنيد: سيروا مع الهمم العالية.

وقد أمر الله خير الخلق ﷺ بصحبة المجدّين في السير إلى الله وترك الغافلين فقال عزَّ من قائل: ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)** ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ** ﴾ [لقمان: ١٥]، وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩)** ﴾ [التوبة: ١١٩].

فلو صحب الإنسان من يظنون أن قيام ساعة من الليل إنجاز باهر فهو مغبون لن يعْدُو قدره، بل سيظل راضيًا عن نفسه مانًّا على ربه بتلك الدقائق التي أجهد نفسه فيها ولكنه لو رأى الأوتاد من حوله تقف الساعات الطوال في تهجد وتبتل وبكاء (وهم مُتَقَالُّونَها) فأقل أحواله أن يظل حسيرًا كسيرًا على تقصيره مرددًا:

أنا العبد المخلَّفُ عن أُناسٍ حوَوْا من كل معروفٍ نصيبا

ونبذ البطالة هِجِّيرَى الناسك في كل زمان، وقد قيلَ: الراحة للرجال غفلة.

وقال شعبة بن الحجاج البصري أمير المؤمنين في الحديث: لا تقعدوا فُرْاغًا فإن الموت يطلبكم.

وقال الشافعي: طلب الراحة في الدنيا لا يصح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبان في كل زمان.

وقيل لأحد الزهاد: كيف السبيل ليكون المرء من صفوة الله؟ فقال: إذا خلع الراحة وأعطى المجهود في الطاعة.

وقيل للإمام أحمد: متى يجد العبد طعم الراحة؟ فقال: عند أول قدم يضعها في الجنة.

أما البحث عن ذوي الهمم والمروءات وأصحاب السِّرِّ مع الله فهي بُغية كل مخلص في سيره إلى الله، قال زين العابدين: إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه.

وقال الحسن البصري: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة، قال الشاعر:

لعمرك ما مالُ الفتى بذخيرةٍ   ولكنَّ إخوان الثقات الذخائر

وكان من من وصايا السلف انتقاء الصحبة، قال الحسن البصري: إن لك من خليلك نصيبًا، وإن لك نصيبًا من ذكر من أحببت، فانتقوا الإخوان والأصحاب والمجالس.

فاجتهد أيها الأريب باحثًا عن أعوان المسير أصحاب الهمم العالية، ابحث عنهم في المساجد بالضرورة، اسأل عنهم في مجالس التقاة، لا تستبعد المفاوز لتصل إليهم ولو اقتضى الأمر أن تعلن في الصحف السيارة.

(مطلوبٌ: معينٌ على الخير في شهر رمضان)

يا له من إعلان ..

مع هذه الصحبة تتعاونون على تدارك الثواني والدقائق، تحاسبون أنفسكم على الزفرات والأوقات الغاليات، لو فرط أحدكم في صلاة الجماعة وجد من يستحثه على عقاب نفسه كما كان يفعل ابن عمر.

ترى البطالين يصلون التراويح سويعة ثم يسهرون ويسمرون ويسمدون وتضيع عليهم صلاة الفجر ﴿ **وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا** (١٠٤) ﴾ [الكهف: ١٠٤].

لا أيها الرشيد، تعال أخبرْك بحال من اجتمعوا على السير إلى الله: أوقاتهم بالذكر وتلاوة القرآن معمورة، مساجدهم تهتز بضجيج البكاء من خشية الله، تراهم ذابلين من خوف الآخرة، وعند العبادة تراهم رواسي شامخات كأنهم ما خلقوا إلا للطاعة، ليس في قاموسهم: فاتتني صلاة الجماعة، دع عنك أصل الصلاة، تراهم في قيامهم وقعودهم خاشعين كأنهم على حياء من الله يقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

ليلهم، وما أدراك ما ليلهم؟ نحيب الثكالى يتوارى عند نشجيهم ﴿ **كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ** ﴿٦﴾ ﴾ [الأنفال: ٦]، صلاتهم في ظلام تُجلَّلُ بأنوار الكرامة، فهم في حللها يتبخترون، وببهاء مناجاتهم لربهم يتيهون، محى استغفار الأسحار سخائم قلوبهم، فهم في نعيم الأُنس يتقلبون، وبلذيذ الخطاب يستمتعون، وهذا (الحفظي) يخبرنا:

والجنيد يقول طاحتْ   كل علْمٍ وإشارةً

ورســـومـــاتٌ تـلاشتْ وانْـمـحَـتْ تلك العـبـارة
ورُكَـــيْـــعَـــاتٌ تـوالت سَـحَـرًا فـيـهـا البـشـارة
ورأيـــنـــا فـــي المـــآل ذلك الكـنـز الدّفـــيـنا
فـــاز من قـــام الليـــالي بصـــلاة الخـــاشـــعـــينا

واعلم أيها النبيه أن من تمام سعيك لتحصيل المغفرة من شهر رمضان أن تبحث لك عن شيخ مربّ لبيب، قد يكون ظاهرًا أو خـفـيًـا، قـد يكون عـالمًا أو طالب علم، ولكنك من لحْظه ولَفْظه تعلم أنه صاحب سرّ مع الله، ومثل هؤلاء يشتهر أمرهم غالبًا بين الناس، وإن بالغوا في التخفي فلن تعدم من يدلك عليهم إذا أكثرت التَّسْآل عنهم.

وشرط انتفاعك بهم أن يكونوا من أهل السنة والنُسك السلفي، فهؤلاء هم أمناء الأمة وهداتها.

ومثل هؤلاء تنتفع بهديهم ودلّهم وسَمْتِهم وبفعالهم قبل أقوالهم، تراهم في الصلاة نموذجًا للخضوع والتبتل والتنسك، تكبيرتهم في الصلاة وإن خفتت بها أصواتهم فكأنها صرخة في مجرّات الكون بحقيقة أكبرية الله.

ركوعهم وسجودهم رمز السجود لكل الكائنات، إذا أبصرت عيناك عبادتهم وددت لو سبحت الخليقة كلها بتسبيحهم، ولعلها تفعل، أما قال الله عن داود: ﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩)** ﴾ [ص: ١٨ - ١٩].

اللَّهم إنَّا نسْألك صحبة الصالحين وألحقنا بهم في جنات النعيم.



القاعدة الخامسة

إعداد بيان عن عيوبك وذنوبك المستعصية وعاداتك القارة في سويداء فؤادك لتبدأ علاجها جدياً في رمضان وكذا إعدادقائمة بالطاعة التي ستجتهد في أدائها لتحاسب نفسك بعد ذلك عليها

قال ﷺ : «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعدتحت جبل يخاف أن يقع عليه وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا» رواه البخاري.

لأن همة أبناء الآخرة تأبى إلا الكمال، وأقل نقص يعدونه أعظم عيب، قال الشاعر:

ولم أر في عيوب الناس عيبًا كنقص القادرين على التمام

وعلى قدر نفاسة الهمة تشرئب الأعناق، وعلى قدر خساستها تَثَّاقَل إلى الأرض: قال الشاعر

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

وهذا ردٌّ على من يقول: ومن لنا بمعصوم عن عيب غير الأنبياء ويردد:

من ذا الذي ترجى سجاياه كلها كفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه

فإن هذه القاعدة في التعامل مع الناس، أما معاملة النفس (أيها الأريب) فهي مبنية على التهمة، وعلى طلب الكمال وعدم الرضا بالدون:

فإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

فلذاك السالك دومًا يستكمل عناصر الإيمان، كلما علم أن ثمة ثلمة، يعزم لذلك عزْمة (تأمل) فإذا شرع في الاستكمال: أدرك ضرورة الصفاء فيه، وأن يَرْفَأَ ويَرتُقَ بجنس ما وهبه الله من خير آنفًا لئلا يفضحه النَّشَاز (وجود العيب مع خصال الحُسن) فيعزم لذلك عزمة أخرى فثالثة تستدعي رابعة في نهضات متوالية حتي يصيب مراده[1]. (أي استكمال عناصر الإيمان)

هذه العزمات المتوالية تستحثها في كل زمان، ولكن

(١) «العوائق» (ص ٣٨).

قد يَتَسَرْطَن عيب ويَتجذَّر ذنب وتتأصل عادة، ولا يجدي مع مثل هذا أساليب علاج تقليدية، إنما هي عملية جراحية استئصالية تتطلب حِمْيةً متوفرة في شهر رمضان، وهِمَّةً شَحَذْتَهَا قبيل هذا الزمان المبارك، **فما بقي إلا أن تضع مبضع العزيمة الحاد وبجَلَد وصبر على آلام القطع تستأصل تلك الأورام الناهشة في نسيج إيمانك وتقواك، لا تستعمل أي مخدر**، فإن شأن المخدر أن يسافر بك في سمادير السكارى وأوهام الحيارى، فتفيق دون أن تدري بأن الورم لم يُستأصل بكامله، بل بقيت منه مُضغةٌ متوارية ريثما تَتسرَطْن ثانية.

فإذا كنت مدخنًا أو مبتلىً بالنظر أو الوسوسة أو العشق فبادر إلى تقييد كل هذا البلاء وابدأ العمليات الجراحية في شهر رمضان ولا تتذرع بالتدرج الذي سميناه مخدرًا، بل اهجر الذنب وقاطع المعصية وابتُر العادة **ولا تجزع من غزارة النزيف وشدة الآلام، فإنه ثمن العلاج الناجع، وضرورة الشفاء الباتّ الذي لا يغادر سقمًا.**

ووجه كون شهر رمضان فرصةً سانحة لعلاج الآفات والمعاصي والعادات، أنه شهر حِمْية أي امتناع عن الشهوات (طعام وجِماع) والشهوات مادة النشوز والعصيان، كما أن الشياطين فيه تصفّد وهم أصل كل بلاء يصيب ابن آدم، أضف إلى ذلك: جَمَاعية الطاعة، حيث لا يبصر الصائم في الغالب إلا أمةً تصوم وتتسابق إلى الخيرات فتضعف همته في المعصية وتقوى في الطاعة، فهذه عناصر ثلاثة مهمة تتضافر مع عزيمة النفس الصادقة للإصلاح فيتولّد طقس صحي وظروف مناسبة لاستئصال أي داء.

وقبل كل ذلك وبعده لا يجوز أن ننسى ونغفل عن ديوان العتقاء والتائبين والمقبولين الذي يفتحه الرب جلَّ وعلا في هذا الشهر، وبنظرة عابرة إلى جمهور المتدينين تجد بداياتهم كانت بعبرات هاطلة في سكون ليلةٍ ذات نفحات من ليالي رمضان.

وما لم تتحفّز الهمم لعلاج الآفات في هذا الشهر لن تبقى فرصة لأولئك السالكين أن يبرءوا، فمن حرم بركة

رمضان ولم يبرأ من عيوب نفسه فيه، فأي زمان آخر يستظل ببركته.

وفي صحيح ابن خزيمة أن جبريل عليه السلام قال: «من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قل آمين، فقلتك (أي النبيِّ ﷺ قال»: آمين». الحديث صحيح.

وروى الطبراني بسندٍ ضعيف عن النبيِّ ﷺ: «بعداً لمن أدرك رمضان فلم يغفر له، إذا لم يغفر له فمتى؟» قال: وروى الطبراني بإسنادٍ فيه نظر عن عبادة بن الصامت مرفوعًا: «أتاكم رمضان شهر بركة يغشاكم الله فيه فينزل الرحمة ويحُطُّ الخطايا ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه ويباهي بكم ملائكته فأروا الله من أنفسكم خيراً فإن الشقي من حُرِمَ فيه رحمة الله» الحديث.

أما استحضار أنواع الطاعات وتقييدها وتوطين العزيمة على أدائها في رمضان فهو من أهم ما يُستَعدُّ له في هذا الشهر، وعلى هذا الأصل تحمل كل النصوص الواردة في

فضل رمضان والاجتهاد فيه، فمعظمها صريح أو ظاهر في أنه قيل قبل رمضان أو في أوله.

ويمنّي بعض الخياليين نفسه بأماني العزيمة التي لا تعدو أن تكون سرابًا يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا.

فنراه يحلم أحلامًا ورديةً بأن يجتهد في هذا الشهر اجتهادًا عظيمًا، وتراه يرسم لنفسه صور الجلال وأُبهة الولاية، فإذا ما هجم الشهر، قال المسكين: اليوم خمر، وغدًا أمر.

ولو أن هؤلاء كانت لهم قبل شهر رمضان جولات في ميادين الاجتهاد في الطاعة لأنسوا من نفوسهم خيرًا لكنهم طمعوا في نوال القُرْب ولما يستكملوا زاد المسير كمثل من ذهب إلى السوق بلا مال فلا يجهد إذا نفسه في المساوامة بل يقال له: تنكب لا يقطرك الزحام.

لما قال أنس بن النضر لرسول الله ﷺ بعد غزوة بدر: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، ثم رووا

لنا أنهم وجدوه في أُحد صريعًا به بضع وستون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم؛ علمنا ما أضمر الرجل.

ولما قال ذلك الصحابي: يا رسول الله ما بايعتك إلا على سهم يدخل ههنا فأدخل الجنة، قال له الرسول ﷺ: «إن تَصْدُقِ الله يَصْدُقْكُ»، ثم رووا أن السهم دخل من موضع إشارته: علمنا ما عزم عليه الرجل.

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ
وتعظُم في عين الصغير صغارُها وتصغُر في عين العظيم العظائمُ

القاعدة السادسة

الإعداد للطاعة ومحاسبة النفس عليها



واعلم أن الاستعداد للطاعة ومحاسبة النفس عليها وظيفتان متباينتان، لكنهما متداخلتان أي يتعاقبان ويتوارد أحدهما على الآخر.

أما الإعداد للعمل فهو علامة التوفيق وأمارة الصدق في القصد، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً** ﴾ [التوبة: ٤٦]، والطاعة لابد أن يُمَهَّدَ لها بوظائف شرعية كثيرة حتى تؤتي أكلها ويُجتني جَناها، وخاصة في ظهر رمضان حيث تكون الأعمال ذات فضل وثواب وشرف مضاعف لفضل الزمان.

فصلاة الجماعة لابد أن تسبق بإحسان الوضوء ونية صادقة حسنة في تحصيل الأجر وزيارة الله عزَّ وجلَّ في بيته وتعظيم أمره والبدار في تلبية ندائه (حي على الصلاة) والمسارعة في سماع خطابه والالتذاذ بمناجاته ولقائه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في جماعة تَضْعُفُ صلاته في بيته وفي سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يُخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وحطت عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يُحْدِث، تقول: اللَّهم صل عليه، اللَّهُم ارحمه، ولا يزال في الصلاة ما انتظر الصلاة» متفقٌ عليه.

ويحتفُّ بهذا الإعداد في التطهر والنيات إعدادٌ نفسي للقْيا الله عزَّ وجلَّ، ويكون ذلك بأمور: منها: ترْداد الأذكار الشرعية الواردة عند الخروج من البيت والمشي إلى المسجد فإنها مهمة في حضور القلب ومنها عدم فعل ما يتنافى مع الوقار والطمأنينة أثناء المشي إلى المسجد كتشبيك الأصابع وكثرة التلفت والتطلع إلى المارة وزخارف وزهرة الدنيا (وخاصة في هذه العصور) وعدم الإسراع والسعي، وذلك أن المشي إلى الصلاة جزء هام ممهد للخشوع في الصلاة، لذا

قال النبيِّ ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة» متفقٌ عليه، وفي روايةٍ لمسلم: «فإن أحدكم إذا كان يَعْمَدُ إلى الصلاة فهو في صلاة» ولا ينبغي أن يكثر من الضحك قبل الصلاة وبعدها فإنه يذهب لذة الخشوع ويُقسِّي القلب ويحول بينه وبين الشعور بثمرة الطاعة.

وعند دخول المسجد لابد أن يدخله معظمًا مظهرًا الوجل من مهابة المكان وصاحبه، فإن المساجد منازل الرحمة ومهابط البركات، لذا شرع أن يقول الداخل إلى أي مسجد: **أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم.**

فإذا دخل المسجد شرع في السنة الراتبة أو النافلة ريثما يقام للصلاة، وأهمية هذه السنة أو النافلة تكمن في تهيئتها وتمهيدها للفريضة لكمال الحضور فيها.

ثم يشرع في صلاة الفريضة مستحضرًا ما سنذكره عن وسائل تحصيل لذة الطاعة في الصلاة.

ومن جنس هذا الاستعدادُ لصلاة التراويح فإنها من أعظم العبادات في ليالي رمضان، ففي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»، وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: صمنا مع رسول الله ﷺ رمضان فلم يقم بنا شيئًا من الشهر حتى بقي سبعٌ فقام بنا حتى ذهب ثُلث الليل، فلما كانت السادسة لم يقم بنا، فلما كانت الخامسة قام بنا حتى ذهب شطر الليل، فقلت: يا رسول الله، لو نفلتنا قيام هذه الليلة (أي قمت بنا الليلة كلها)، قال: فقال: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسِبَ له قيام الليلة» رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح.

ويشكو كثير من المواظبين على قيام الليل في رمضان من عدم لمسهم لثمرة هذه الصلاة مع اعتقادهم بأهميتها وسعيهم لبلوغ الغاية من أدائها.

والحق أن هذه الصلاة المهمة كغيرها تحتاج إلى إعداد وتهيئة، فيلزم الراغب في الانتفاع من صلاة التراويح إقلال

الطعام للغاية، ويحبَّذ أن يأتي المسجد وفي بطنه مسٌّ من جوعٍ، فإنه مثمر جداً في حضور القلب، وينبغي عليه أن يتطهر جيداً ويلبس أحسن الثياب ويأتي الصلاة مبكرًا، وقبيح جداً أن تفوته صلاة العشاء، فهذا دليل الحرمان وعدم الفقه في الدين، فإن صلاة العشاء في جماعة تعدل قيام نصف ليلة كما صح في الحديث، فوق كونها فريضة، والله عزَّ وجلَّ يقول في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افْتَرَضْتُهُ عليه**» رواه البخاري.

ثم يستحضر القدوم على الله والوفادة إليه وانتهاز فرصة التعرض لرحمته ومغفرته والعتق من النار، ويذهب إلى المسجد يدفعه الشوق والرغبة في الفضل، ويكدره الحياء من الله وخوف الرد والإعراض، ويطلب مساجد أهل السنة حتى يُوهَبَ للصالحين إن كان من غير المقبولين ثم يستحضر ما ذكرناه من وظائف عند الدخول في الصلاة وأثنائها.

أما محاسبة النفس على الطاعات فهذا من أنفع

الوظائف التي يقوم بها العابدون في شهر رمضان، والأصل أن المحاسبة وظيفة لازمة للسالك طريق الآخرة، ولكنها تتأكد وتزداد في هذا الشهر.

والمحاسبة معناها: (فَحْصُ الطاعة ظاهراً وباطناً، وأولاً وآخراً، بحثاً عن الثمرةِ ليعرف مأتاها فيحفظَهُ، وقدرَها فينميه، ووصولاً للنقص سابقاً، ليتداركه لاحقاً).

والمحاسبة تكون قبل العمل وأثناءه وبعده.

أما قبله فبالاستعداد له واستحضار ماقصّر فيه حتى يتلافاه، وأثناءه بمراقبة العمل ظاهراً وباطناً أوله وآخره، والمحاسبة بعد العمل بإعادة ذلك كله.

وهذه المحاسبة إذا واظب عليها المرء صارت مسلكاً لا يحتاج إلى تكلّف ومعالجة وسيجد غِبَّ هذه المحاسبة وثمرتها تزايداً في مقام الإحسان الذي سعى إليه كل السالكون وهي أن يعبد الله كأنه يراه.

ومثل هذه المحاسبة ينبغي أن تكون في الخفاء، يحاور

نفسه وهواه ويعالج أي قصور بِلَوْم نفسه وتقريعها وعقابها على كسلها وخمولها.

ولا يُنصح بمداومة الاعتماد على أوراد المحاسبة الشائعة، وقد اختلف فيها الناس على طرفين، فمنهم من جعلها وسيلة دائمة للتربية، وطريقة ناجعه لتقويم النفس، ومنهم من بالغ ومنع منها مطلقًا واصفًا إياها بالبدعية، والحق التوسط، نعم هي وسيلة لم ترد عن سلف هذه الأمة لكن تشهد لها نظائر في الشرع مثل عد التسبيح بالحصى ونحو ذلك مما ثبت عن الصحابة والتابعين، ثم إننا لا نقول بجواز الاعتماد على تلك الأوراد في كل الأحايين بل ننصح بها في بداية السير وأيضًا لا نُلزم بها أحدًا، ولكن من عوّل عليها في بداية سيره لكون نفسه متمردةً شمُوَساً فنرجو ألا يكون ثمة حرج، شرط عدم توالي اعتماده عليها.

والصواب تنشئة النفس على دوام المحاسبة الذاتية والمراقبة الشخصية، وتعويدها على العقاب عند الزلل، فإن هذا من شأنه أن ينقّي العبادة من أي حافز خارجي دخيل

على النية الصالحة كرغبة في تسويد ورقة المحاسبة أو نحو ذلك . وقال الحفظي :

شـــارطِ النفس وراقبْ	لا تكن مـثل البـهـائمْ
ثـم حـاسـبـهـا وعـاتـبْ	وعـلـى هـذا فـــلازمْ
ثـم جـاهدها وعـاقـبْ	هكـذا فـعل الأكـــارمْ
لـم يـزالـوا في سِـجـالِ	للنّفـوس مـحـاربينا
فـاز من قـام الليـالي	بصـلاة الخـاشـعـينا





القاعدة السابعة

مطالعة أحكام الصوم وما يتعلق بشهر رمضان

وهذا من آكد الواجبات، فمفتاح السعادة ومنشور الولاية مرهون بالعلم الصحيح النافع الممهّد للعمل الصالح، وليس ثمة عمل صالح بدون علم نافع.

والعلم النافع ينادي على صالح العمل فإن أجابه وإلا ارتحل. وكما وجب على المصلي تعلم ما يقيم به صلاته وعلى المزكّي ما يخرج به زكاته وهلم جرا . . فيقبح قبحًا شرعًا أن يتعرض الناس لأجلّ مواسم الطاعات وهو مفلس من طرائق المنافسة فقيراً في زاد المعاملة.

ولابد من معرفة أحكام الصوم وأعذاره وأركانه ومبطلاته ومباحاته وأحكام صلاة التراويح والاعتكاف، وفي حق المرأة أن تتعلم أحكام الصوم في حق الحائض والمستحاضة والنفساء والصوم في حق الحامل والمرضع.

وننصح بالكتب الآتية في تحصيل أحكام الصيام منها

مع عدم الامتناع عن سؤال أهل العلم ومراجعتهم عند المشكلات :

١) «**زاد المعاد في هدي خير العباد**» لابن القيم (باب :هديه ﷺ في الصوم) .

٢) «**صفوة الكلام في مسالك الصيام**» لأبي إدريس محمد عبد الفتاح (رسالة مختصرة) .

٣) «**فقه السنة**» للشيخ سيد سابق مع تمام المنة في التعليق على فقه السنة للشيخ الألباني .

وتجنب أيها الأريب التصدر للفتيا والتبرع بالإفادات حال كونك لست من أهل هذا الشأن، فإنه مشأمة لك ومظلمة لغيرك .

ومما تتأكد مطالعته ما يتعلق بفقه المعاملة مع الرب وما ينبغي فعله في المواسم، وننصح بكتاب « لطائف المعارف » للحافظ ابن رجب رحمه الله .



القاعدة الثامنة

إعداد النفس لتذوق عبادة الصبر

قال تعالى : ﴿ **وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ** (٣٥) ﴾ [فصلت : ٣٥] .

فبعض الخليقة تجعل من مواسم الطاعة مرتعًا لنيل اللذات بكل أنواعها، وهو مرتع وخيم على صاحبه، إذ به يخرج من الشهر كما دخل بل أفسد، وتزداد المسافة بينه وبين حقيقة قصد الآخرة، وتتكاثف غيوم الشهوات حائلة بينه وبين الوصول إلى الله .

وإذا كان شهر رمضان هو شهر الصوم والصبر فما أحرانا أن نتذوق حقيقة الصبر لنتذوق حقيقة الصوم .

وأمامك أيها الساعي إلى الخيرات في هذا الشهر صبر عن المحارم، وصبر على الطاعات، ومع ذلك كله صبر على كل بلية تنالك .

وأنواع الصبر هذه هي أوسمة الولاية وقلادات الإمامة في الدين.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إنما تُنال الإمامةُ في الدين بالصبر واليقين، واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن أظهر معاني الصبر: حبس النفس على المكرمة وأنه من أصعب المنازل على العامة وأوحشها في طريق المحبة، وإنما كان صعبًا على العامة لأن العامي مبتدئ في الطريق وليس له دربة في السلوك وليس تهذيب المرتاض بقطع المنازل، فإذا أصابته المحن أدركه الجزع وصعب عليه احتمال البلاء وعزّ عليه وجدان الصبر لأنه ليس في أهل الرياضة فيكون مستوطنًا للصبر، ولا من أهل المحبة فيلتذ بالبلاد في رضا محبوبه ...) اهـ.

مما نقلته لك تعلم أيها الحريص على النجاة أن شهر

رمضان ميدانك الرحب لتمارس رياضة الصبر وأنت مُعانٌ في كل فجٍ.

فعين الله تصنعك، والأبالسة في أصفادها ترمقك، ونفسك ستراها إلى الخير وثابة وعن الشر هيّابة، فلم يبق إلا أن تعالج الخطرات والوساوس الواجات في حنايا قلبك، ليست شعري ما أشبه قلبك بالمريض في غرفة العناية المركزة، إنه محروم من كل طعام يفسد دورة علاجه، بل محروم من مخاطبة أقرب الأقربين لتتفرغ أجهزة جسمه للانتعاش واسترداد العافية، ثم إنه يتنفس هواءً معقّمًا خاليًا من كل تلوث، وتدخل في شراينه دماء نقية لتمده بأسباب القوة، ويقاس نبضه ودرجة حرارته كل حين ليتأكد الطبيب من تحسن وظائف جسمه، فما أحرى هذا القلب السقيم الذي أوبقته أوزاره، وتعطن بالشهوات، وتلوث بالشبهات، وترهل بمرور الشهور والدهور دون تزكية وتربية؛ ما أحراه أن يدخل غرفة العناية المركزية في شهر رمضان، فتكون كل إمدادات قوته مادة التقوى وإكسير المحبة لله ورسوله ﷺ وطاعتهما.

فلتصدر مرسومًا على نفسك أن تلزم جناب الحشمة في هذا الشهر أمام شهوة البطن وغيره، فإن أعلنت عليك التمرد فلا تتردد في فرض الأحكام الاستثنائية وأصدر قراراً باعتقال هذه النفس الناشز وأدخلها سجن الإرادة حتى تنقاد لأوامرك إذا صدرت، فإن ازداد تمردها وتجرأت في ثورتها فألهب ظهرها بسياط العزيمة وعنفها على مخالفتها أمرك وعصيانها إرادتك، فإن أبت إلا الشرود فلوّح لها بحكم الإعدام وأنها ليست عليك بعزيزة، فإن تمنعت إدلالاً وطمعًا في عطفك فلابد من تنفيذ حكم الإعدام في ميدان العشر الأواخر بحبسها في معتكف التهذيب حتى تتلاشى تلك النفس المتمردة وتفنى، وتتولد في تلك الليالي والأيام نفس جديدة وادعة مطمئنة تلين لك عند الطاعات إذا أمرتها، وتثور عليك عند المعاصي إذا راوَدْتها، فقد وُلدَت ولادة شرعية في مكان وزمان طاهرين ونشأت وتربَّت في كنف الصالحين، فلن تراها بعد ذلك إلا على الخير.

إنها ولادةٌ لنفس ذات إمامة في الدين، تنشأت على مهد الولاية، وترقّت في سلك الرهبوت والتبتل.

القاعدة التاسعة

كيفية تحصيل حلاوة الطاعات

أما كون الطاعة ذات حلاوة فيدل له قوله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمَّدٍ ﷺ رسولاً»(١)، وقوله ﷺ: «ثلاثة من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»(٢)، ولما نهى الرسول ﷺ أصحابه عن الوصال قالوا: إنك تواصل، قال: «إني لست كهيئتكم، إني أُطعم وأُسقى»(٣)، وفي لفظ: «إني أظل عند ربي يُطعمني ويَسقيني»(٤)، وفي لفظ: «إن لي مُطعمًا وساقيًا يسقيني»(٥)،

(١) رواه أحمد ومسلم.
(٢) رواه البخاريّ ومسلم.
(٣)، (٤) رواه البخاري ومسلم.
(٥) رواه البخاري وأبو داود.

قال ابن القيم: قد غَلُظَ حجاب من ظن أن هذا طعام وشراب حسي للفم، ثم قال: والمقصود أن ذوق حلاوة الإيمان والإحسان أمر يجده القلب تكون نسبته إليه كنسبة ذوق حلاوة الطعام إلى الفم. اهـ.

واعلم أولاً أيها السالك في مرضاة إلهك أن كلمات القوم في هذا الباب رسوم، وإرشاداتهم في هذا الباب عموم، ولا تبقى إلا الحقيقة الثابتة في نفسها، وهذه لا ينالها إلا من أناله الله إياها، ومن ذاق عرف، فكن من هذا على ذكر، لأننا سنسوق إليك كلامًا لا يفهمه غليظ الحجاب كثيف الدين، فإن استعصى عليك الفهم فلن نبادر إلى اتهام صلتك بالله، بل نقول أتمم قراءة الباب ونفذ ما سنوصيك به ثم أعد قراءة هذه السطور فإن وجدت الأمر كما وصفنا فاحمد الله الذي أذاقك طعم الإيمان وحلاوة الطاعة.

بدءًا يجب أن تعلم (أن الفكر لا يُحَدُّ واللسان لا يصمت، والجوارح لا تسكن، فإن لم تشغلها بالعظائم شُغلتْ بالصغائر، وإن لم تُعملها في الخير عملتْ في الشر.

إن في النفوس ركوناً إلى اللذيذ والهين ونفوراً عن المكروه والشاق، فارفع نفسك ما استطعت إلى النافع الشاق وروّضها وسُسها على المكروه الأحسن، حتى تألف جلائل الأمور وتطمح إلى معاليها، وحتى تنفر عن كل دنية وتربأ عن كل صغيرة، علّمها التحليق تكره الإسفاف، عرِّفها العزة تنفر من الذل، أَذِقْها اللذات الروحية العظيمة تحقر اللذات الحسية الصغيرة)(١).

ودومًا نلح على علو الهمة باعتبارها عنصرًا جوهريًا في أي سعي عظيم، وأي سعي أعظم من سعي الآخرة، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا** (١٩) ﴾ [الإسراء: ١٩].

ثم اعلم – علمت كل خير – أن حلاوة الطاعة ملاكها في جمع القلب والهم والسر على الله ويفسره ابن القيم قائلاً: هو عكوف القلب بكليته على الله عزَّ وجلَّ، لا يلتفت عنه يمنةً ولا يسرةً، فإذا ذاقت الهمة طعم هذا الجمع

(١) «لعبد الوهاب عزام عن الرقائق».

اتصل اشتياق صاحبها وتأججت نيران المحبة والطلب في قلبه .. ثم يقول: فلله همةُ نفسٍ قطعت جميع الأكوان وسارت فما ألقت عصا السير إلا بين يدي الرحمن تبارك وتعالى فسجدت بين يديه سجدة الشكر على الوصول إليه، فلم تزل ساجدة حتى قيل لها: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)** ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، فسبحان من فاوت بين الخلق في هممهم حتى ترى بين الهمتين أبعد ما بين المشرقين والمغربين بل أبعد مما بين أسفل سافلين وأعلى عليين، وتلك مواهب العزيز الحكيم: ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٥٤] ثم يقول: وهكذا يجد لذة غامرة عند مناجاة ربه وأنسًا به وقربًا منه حتى يصير كأنه يخاطبه ويسامره، ويعتذر إليه تارة ويتملقه تارة ويثني عليه تارة حتى يبقى القلب ناطقًا بقوله: (أنت الله الذي لا إله إلا أنت) من غير تكلف له بذلك بل يبقى هذا حالاً له ومقامًا كما قال النبي ﷺ:

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»[١]، وهكذا مخاطبته ومناجاته له، كأنه بين يدي ربه فيسكن جأشه ويطمئن قلبه فيزداد لهجًا بالدعاء والسؤال، تذللاً لله الغني سبحانه، وإظهارًا لفقر العبودية بين يدي عز الربوبية، فإن الرب سبحانه يحب من عبده أن يسأله ويرغب إليه، لأن وصول بره وإحسانه إليه موقوف على سؤاله، بل هو المتفضل به ابتداءً بلا سبب من العبد ولا توسط سؤاله وطلبه، بل قَدَّر له ذلك الفضل بلا سبب من العبد، ثم أمره بسؤاله والطلب منه إظهارًا لمرتبة العبودية والفقر والحاجة واعترافًا بعز الربوبية وكمال غنى الرب وتفرده بالفضل والإحسان، وأن العبد لا غنى له عن فضله طرفة عين، فيأتي بالطلب والسؤال إتيان من يعلم أنه لا يستحق بطلبه وسؤاله شيئًا، ولكن ربه تعالى يحب أن يُسأل ويُرغب إليه ويطلب منه .. ثم قال: فإذا تم هذا الذل للعبد: تم له العلم بأن فضل ربه سبق له ابتداءً قبل أن يخلقه، مع علم الله سبحانه به

---

(١) رواه أحمد ومسلم.

وتقصيره وأن الله تعالى لم يمنعه علمه بتقصير عبده أن يقدر له الفضل والإحسان، فإذا شاهد العبد ذلك اشتد سروره بربه وبمواقع فضله وإحسانه، وهذا فرح محمود غير مذموم قال الله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس: ٥٨] اهـ.

وهذا كلام راقٍ يحتاج إلى تَرْدادٍ لفهمه، وتَجْوَالٍ في حنايا نظمه:

فأَدِمْ جرَّ الحبالِ   تقطعِ الصخرَ الثَّخينا

ولكننا لا ندعك للرسوم والإشارات وعموم تلك العبارات، بل نَلِجُ إلى واقع عملي تكابد به حقائق الخدمة، وتتجلى لك من ورائه دقائق علم السلوك، فتستغني – أيها النابه العابد – بالمثال الواحد عن ألف شاهد.

فهاك جملة من الطاعات التي يؤديها كل الناس، ولننظر كيف يجب أن تؤدي وتقام.



ذكر الله عز وجل

قال الفيروزآبادي في القاموس: الذكر بالكسر الحفظ للشيء .. ومازال مني على ذُكر وذِكر أي تذكر.

وبهذا تعلم أن الذكر حقيقة في الحفظ والتذكر والاستحضار، واستخدم في الشرع بمعنى جريان اللسان بالثناء على الله وطلب المغفرة منه حتى صار حقيقة شرعية، غير أنه غُلّب من العامة على وظيفة اللسان، فأصبح لا يطلق الذكر إلا ويتبادر معنى تحرك اللسان بالأذكار، وشطح غلاة الصوفية فصاروا لا يفهمون من الذكر إلا مجالس الرقص والدفوف، وكل ذلك يتنافى مع كثير من إطلاقات القرآن.

يقول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾[آل عمران: ١٣٥] فذكْرُ الله هنا بمعنى استحضار عظمته وحفظ مقامه وتذكّر جلاله وهيبته، يؤيده أنه عطف عليه الاستغفار وهو ذكر، فلو كان معنى ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ** ﴾ أي جري اللسان

بذكره لتكرر هكذا: ذكروا الله فذكروه، ولا يقال: إن قوله: ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا** ﴾ من قبيل عطف الخاص على العام، لأن هذا من باب التأكيد، والتأسيس أولى من التأكيد، فالمتجه عندنا أن ذكر الله ألزم صفة للمتقين فهم يستحضرون عظمته ويتذكرون أياديَهُ عليهم فيكون ذلك سببًا في معرفة جرم ذنوبهم فستغفرون.

وتأمل قول الله تعالى: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (٧) ﴾ [الأنبياء: ٧]، تجد أن الذكر هنا أيضًا بمعنى العلم، وإذا أجريت ما ذكرناه لك عن معنى الذكر هنا فهمت ضرورةً أن قوله: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ** ﴾ أي أهل الخوف من الله والخاشعين له والمستحضرين لعظمته، وليس هؤلاء إلا العلماء لقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

بل إن قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٣٥] فيه إشارة إلى ما قررناه، فشأن أهل الإيمان (الذين وردت الآية في سياق وصفهم) توجل قلوبهم بمجرد جريان خواطرهم به عزَّ وجلَّ عند سماع اسم

من أسمائه أو صفةً من صفاته أو أي شيء يشير إلى مقامه، ولو كان معنى الآية أن المؤمنين توجل قلوبهم بترداد ذكره وجريان اللسان لهجًا بالثناء عليه فليس في ذلك مزية، فمعظم الناس يوجلون عند ترداد الأذكار بحضور قلب، ولكن القليل هم الذين تتفاعل قلوبهم بمجرد ورود الخاطر عن الله.

إذا تقرر ذلك نعلم عندئذ أن ذكر الله عزَّ جلَّ يكون باستحضار عظمته في القلب وليس نوعًا مستقلاً بذاته، لأن جريان اللسان بالذكر دون حراك القلب ليس مقصودًا من الله عزَّ وجلَّ وتقدس، قال تعالى: ﴿**لن ينَالَ اللَّهَ لحُومُها وَلا دمَاؤُهَا ولَكن ينَالُهُ التَّقْوَىٰ منكُمْ**﴾ [الحج: ٣٧]، وقال ﷺ: «التقوى ههنا وأشار إلى صدره» رواه مسلم، وقال أيضًا ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم» رواه مسلم.

وبهذا البيان ندرك أن وظيفة اللسان في الذكر يجب أن تحصّل حضور القلب، بتعظيم الله واستحضار هيبته وجلاله، فما هي الوسائل التي تحقق هذه الثمرة؟

وسائل تحصيل حلاوة الذكر

أولاً: معرفة المقصود من الذكر وهو إجلال مقام الله والخوف منه وخشيته ومهابته وقَدْرُهُ حق قدره، وبهذا المعنى يكون الذكر مستحبًا على كل زمان ومكان يوجد فيه الإنسان.

ثانيًا: أن يلحظ الذاكر نعمة الله على الخليقة لنوالهم شرف ذكره وكرامة ورود كلماته على الخواطر وجريانها في الجوارح مع تلبسها بمعصيته وجحود آلائه ونعمائه.

ثالثًا: لزوم جناب الاحتشام عند ذكر الله باستحضار مراقبته واطلاعه، وكان بعض السلف إذا ذكر الله لم يمد رجليه، وقد وصف الله المؤمنين بأنهم: ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج: ٣٥] ووجل القلب خوفه من الله، قال أبو حيان في تفسيره: وقرأ ابن مسعود: فرقت، وقرأ أُبي: فزعت.

رابعًا: أن يستشعر ويستحضر معنى حديث: «**أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**»[١] رواه البخاري

---

(١) ومعلوم أن هذه المعية: معية خاصة للذاكرين ولا تقتضي الحلولية كما يزعم الزاعمون وإلا ما اشترط للمعية شرطًا لحصولها، وهذا مجمع عليه بين السلف جمعًا بين هذه النصوص وبين النصوص المفيدة للعلو والاستواء على العرش، فافهم هذا المقام واطرح ما عداه تسلم وتغنم.

معلقًا بصيغة الجزم والبيهقي والحاكم، ولا يحولن عَطَنُ الفلاسفة والمتكلمين والمعطلة والجهمية بينك وبين جمال هذا المعنى وجلاله، فما دمت بنيت في ذهنك مقام الربوبية على الإثبات والتنزيه، فأمرَّ النصوص كما جاءت كما فعل السلف تنتفع ببركة تلك النصوص.

واعلم أن المدد من الله على قدر تقواك وصبرك، وحضور القلب على قدر استجماع الفكر في الذكر، والدليل قوله تعالى: ﴿ **بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (١٢٥) ﴾ [آل عمران: ١٢٥].

خامسًا: عدم اليأس من تأخر الفتح، فمن أدمن قرع الباب يوشك أن يؤذن له، وملازمة الإلحاح والوقوف بالباب مع الإطراق بانكسار واختجال علامة التوفيق والقبول، تأمل قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا** ﴾ [التوبة: ١١٨] تجد أن المخلّف ممتحن في حقيقة الأمر: ﴿ **وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ** (١٤١) ﴾ [آل عمران: ١٤١].

سادسًا: يقول ابن القيم في الفوائد: من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر، ومنهم من لا يرى ذلك ولا يبتدئ على غفلة بل يسكن حتى يحضر قلبه فيشرع في الذكر بقلبه فإذا قوى استتبع لسانه فتواطآ جميعًا، فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه من غير أن يخلو قلبه منه بل يسكن أولاً حتى يُحِسَّ بظهور الناطق فيه، فإذا أحس بذلك نطق قلبه ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرًا، وأفضل الذكر وأنفعه ما واطأ فيه القلبُ اللسانَ وكان من الأذكار النبوية وشهد الذاكر معانيه ومقاصده. اهـ. ومثل هذا لا يحسنه إلا ابن القيم رحمه الله.

والمذهب عندنا هو الوسيلة الثانية أي عدم الابتداء على غفلة بل يسكن الذاكر حتى يحضر القلب، وسبيله أن يستحضر نفسه واقفًا بباب الرحمة مطرقًا ينتظر الإذن بالدخول ويجول بقلبه الكسير حول معاني الرحمة والود والقبول، فذلك قمين أن يحضر به القلب.

أما لزوم كون .. الذكر من الوارد في السُّنَّة فهذا بَدَهي لا نطيل في تقريره، فمن سلك غير طريق محمَّد ﷺ أنىَّ له الوصول؟.

أما شهود معاني الذكر ومقاصده فهذا من أعظم أبواب حضور القلب والانتفاع بالذكر وخاصة إذا كانت من المعاني الراقية الرفيعة التي صيغت في حنايا سيد الذاكرين ﷺ.

وسنضرب مثالاً في كيفية التفكر والتدبر في الذكر ليكون كالشاهد على غيره من الأذكار، فمن أذكار الصباح والمساء التي يرددها المؤمن قوله ﷺ: «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده، وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده ربِّ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، ربِّ أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر» رواه مسلم.

فيستحضر ما ذكرناه آنفًا ثم يتدبر الكلمات مظهرًا الفقر والاحتياج والمسكنة، ويجول بقلبه في ملك الله وملكوته، فيتحقق عنده حقائق النعم (أصبحنا)، ويبصر

عظيم منة الله إذْ منَّ عليه بالحياة فأصبح معافىً، مع أنه كان آيسًا من إدراك الصباح، كان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء» رواه البخاري، وها هي رعاية الله تتداركه فيرسل لها روحها بعد توفيها، قال تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر: ٤٢] ومع غمرة الفرحة بنعمة الله يتدارك نفسه بذكر المنعم حتى لا تضمحل رؤية المنعم في خضم الفرحة بالنعمة فينسب كل النعم بل كل هذا الملك إلى المتصرف الحقيقي فيه (وأصبح الملك لله) ومع نسبة النعمة لصاحبها والبوء لمسديها لا ينبغي أن ينسى العبد شكر ربه والثناء عليه فيحمده (والحمد لله)، ثم يشهد شهادة التوحيد (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وسر ذلك: الإقرار بالألوهية بعد الإقرار بالربوبية، فالربوبية هي التصرف والتدبير والمِلْك وهي متضمَّنة في قوله: (أصبحنا وأصبح الملك لله) والألوهية هي إثبات استحقاق الله عزَّ وجلَّ بالألوهية أي كونه إلهًا يعبد ولا يعبد أحدٌ

معه، ثم يكرر بعض معاني الربوبية الأخرى ويحوم حول بعض أسمائه عزَّ وجلَّ وصفاته ليصُقل قلبه بتوحيد الأسماء والصفات فهو سبحانه (له المُلْك) أي أنه المِلكُ، (وله الحمد) أي المحمود الحميد.

ثم يعترف بشمول قدرة الله لكل الأشياء، والشيء أعم لفظة في اللغة لشمولها الموجود والمعدوم والكبير والصغير والعظيم والحقير، ثم يبدأ بعد جولة الثناء على الله، هذه الجولة التي لابد أن يشعر فيها بتحليق روحه بين تلك المعاني الراقية، يبدأ في ذلة ومسكنة ممارسة العبودية في أحلى صورها وهي الدعاء، الذي هو مخ العبادة، فيبدأ دعاءه المتناسب مع الزمان، فيسأل ربه خير هذا اليوم وخير ما بعده وكلمة (خير) مفرد مضاف، فيفيد العموم كما قال الأصوليون، فهو سؤال لكل خير ولأي خير أن يناله بفضل من الله ورحمة، ومقتضى سؤال الخير ألا يُبتلى بالشر لأن الشر ليس بخير، ولكنه يؤكد الاستعاذة من الشر بترداد ألفاظها إمعانًا في التذلل وتأكيداً في المسألة وإلحاحًا في الرغبة.

ولما كان الذكر يستقبل يومًا جديداً أو ليلة جديدة

فإنه يحتاج إلى كل معونة على كل عجز يُقعده عن الانتفاع بيومه وليله، وعجز الإنسان إما أن يكون قدريًا أي لا حيلة له في دفعه، أو كسبيًا، فهو يستعيذ من العجز القدري وهو (سوء الكِبَر) وذلك بأن يبارك له ربه في جوارحه وقوته ونشاطه، ومن العجز الكسبي وهو (الكسل) وذلك بأن يُلهم النشاط وكراهية الدعة والخمول.

ولما كان الذاكر في جولة قلبية مع تلك المعاني المناسبة لزمان اليوم والليلة فإنه يفيق بعد تلك الجولة على حقيقة سيره إلى الله وأن غاية مراده من الذكر والاستعاذة من الشرور أن ينجو حقيقة بدخول الجنة والزحزحة عن النار فيتدارك لسانه هذا الذكر الذي دندن حوله الرسول ﷺ ومعاذ بن جبل فيردد صدى دندنتهما في الكون بترنيمه السالكين الأبدية (رب أعوذ بك من عذابٍ في النار وعذابٍ في القبر).

وفي ذكر القبر في ختام الدعاء والذكر سر عجيب، فإنه بدأ ذكره بالتحليق في أرجاء ملك الله الواسع (أصبحنا وأصبح الملك لله) ثم إنه استشعر سعة الكون بشموله قدرته

عزَّ وجلَّ وتصرفه فيه، وهو خليق أن يجعله مبهوراً بهذه السعة، فيأتي ذكر القبر ليرده عن هذا التوسع والشعور بالرحابة، ويذكّرَ الضيق الذي ينتظره في القبر وكذا بأهواله وخطوبه.

فياله من ذكر يصعد بالإنسان إلى أعلى عليين ثم ينزل به إلى أسفل سافلين، فإذا هو بعد الذكر قد تجلت له الحقائق ورأى الدنيا وملك الله من زاوية السعة ومن زاوية الضيق فتتضاءل نفسه أمام هذا الإعجاز وتصغر ذاته في عمق هذه المعاني، وهذه هي أحلى فوائد الذكر، أن يجد الذاكر في نفسه قدرة على إدراك حقائق الأمور، فيرى ضآلة ذاته، وعظمة ربه، ويبصر تصرف المليك في الكون والخليقة.

سابعًا: أفضل أحوال الذكر: يفضل الذكر في الخلوات عنه في الجلوات أي على مشهد من الناس، قال ﷺ في السبعة الذين سيظلهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». رواه البخاري، والخلوة يجب أن تكون بمنأى عن أعين الناس وعن جلبتهم وضوضائهم، لذا يفضل في الخلوة الهدوء التام والظلام وعدم الإزعاج وقطع لحظات المناجاة، ولا يشرع اتخاذ الخلوات في الجبال والفيافي بما

يشبه الرهبنة كما حققه شيخ الإسلام ابن تيمية، بل الخلوة الشرعية تكون في المسجد بالاعتكاف أو في المنازل والبيوتات، ولا شرع الاعتزال واتخاذ الخلوة في شعب الجبال إلا زمان الفتن التي تعصف بالإيمان والمؤمنين، أما زمن الجهاد والدعوة والإصلاح فلا تشرع العزلة بحال على قول جمهور الفقهاء والمحدثين وأهل السلوك.

وثمة آداب أخرى في حق الذاكر يستحب له إتيانها منها لبس أحسن الثياب وتجديد الوضوء والتطيب واستقبال القبلة على الدوام، ودوام الإطراق، ولزوم الأدب في الجلوس، واستصحاب السواك واستعماله.



وسائل تحصيل لذة الصوم

وهذا من أعجب الأسرار، ولم أجد أحداً تكلم فيها بما يشفي، والمقصود أيها السالك: إيقافك على أسرار العبادة وجمال الخدمة وشرف القيام بالأمر، فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، ومقتضى قيامك بأداء العبادة أن تجد ثمرتها، وثمرة العبادة تكليف شرعي، فمثلاً: يقول عن الصلاة: ﴿ **إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ** ﴾[العنكبوت: ٤٥] أي الصلاة الصحيحة الكاملة، ولكنه لم يتكلم عن لذة العبادة والمناجاة والخطاب وحلاوة القيام بتلك الصلاة وكذلك الصوم حين قال: ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** (١٨٣) ﴾[البقرة: ١٨٣] فالتقوى أيضًا كالانتهاء عن الفحشاء والمنكر وكلاهما مأمورٌ به.

وسر عدم التعرض للذة العبادة وجعلها مقصوداً وغاية مباشرة أن هذه اللذة والحلاوة هي من صميم مقام الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» ولو جُعلت مقصوداً وغاية لَعَجَزَ جمهور المكلفين عن أن يحصّلوا هذه اللذة ليتأكدوا من

حصول ثمرة العبادة، وليأس كثير من السالكين حيث يجتهدون ولما يأتهم المدد، فكان تكليفهم بالقريب الملموس والسهل اليسير لأن علامات التقوى والانتهاء عن المنكر واضحة، أما باطن هذه الغايات وجوهرها فهو الالتذاذ بالخدمة والشعور بالنسبة (نسبة العبد لربه) كما قال ﷺ بعد رجوعه من الطائف وأذية أهلها له وإهانتهم لشخصه، قل: «إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أُبالي» وهذا من أجمل الألفاظ النبوية الجامعة الخارجة من مشكاة خليل رب العالمين، ولذلك كان سيد الاستغفار سيداً لما فيه من الشعور بالنسبة ولذة الخطاب: «أنت ربي .. خلقتني وأنا عبدك .. فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت».

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيًّا

وكذلك الصوم تتحصل اللذة فيه من الشعور بالنسبة والالتذاذ بالخدمة قال تعالى في الحديث القدسي: «**الصوم لي وأنا أجزي به** ...» هذه هي النسبة، وقال: «**ترك طعامه وشهوته من أجلي**» وهذه هي حقيقة الالتذاذ بالخدمة.

ولذلك كان يَبَس الشفاة من العطش، وقرقرة البطون

من الجوع: أهنأ ما لاقاه الصائمون وأَمْرَأ ما ظفر به أولئك الجياع العطشي.

فبينما هو يتألم – وقد تلوى من جوع البطن – يتوارد على فؤاده خاطرة: أن هذا الألم يصبر عليه تعظيماً لحق الله ومهابة لنظره واطلاعه فيرضى عن حاله ويشبع من رضا الله عنه ولا يطمع في أي نعمة تحول بينه وبين لذة هذا الألم.

لكنه سرعان ما يطأطئ منكسراً وجلاً، خائفًا لئلا يقبل الله منه فيتضافر ألم البطون مع ألم القلوب ويتعاظم هذا الألم حتى تتداركه عناية الله وإمداداته فيفيض عليه من جميل لطفه وإنعامه فيسكن هذان الألمان المتضافران وينقلبان حلاوة غامرة ولذة عامرة بل وشوقًا للقاء الله حتى تتم فرحته التي أخبر عنها النبي ﷺ: «وفرحة عند لقاء ربه».

وإذا تأملت هذه المعاني أدركت سر قوله ﷺ: «رب صائم ليس من صيامه إلا الجوع» رواه ابن ماجه (صحيح الجامع).

وقوله ﷺ: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش» رواه الطبراني في الكبير وغيره (صحيح الجامع).

وربما ضربت كفًا على كف من اجتماع هذه

المتناقضت، ألم، ولذة، وجوع، وشِبَع، وعطش، وريٍّ، ولا يمنعّنك هذا العجب من ولوج هذا الطريق والسير فيه، فمن سلكه رأي من آيات ربه الكبرى.

فأحسن القصد، وولّد العزم، وتسلح بالهمة، وابدأ السير، وجِدَّ في الترَّحال، واطلب الراحة في العناء، وارض عن نفسك إذا كان مسعاها في المعالي، ولا تركن إلى غبن أهل الدنيا، ومنٍّ نفسك بالفوز الربيح، وادّخر الثمن الغالي لسلعة الله « ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة » .



وسائل تحصيل لذة الصلاة

(اعلم أن هذه المعاني تكثر العبارات عنها ولكن يجمعها ست كلمات وهي:

(١) حضور القلب. (٢) التفهُّم. (٣) التعظيم.

(٤) الهيبة. (٥) الرجاء. (٦) الحياء.

فلنذكر تفاصيلها ثم أسبابها ثم العلاجَ في اكتسابها، أما التفصيل:

فالأول: حضور القلب، ونعني به أن يفرَغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلمٌ به، فيكون العلم بالفعل والقول مقرونًا بهما، ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، ومهما انصرف القلب في الفكر عن غير ما هو فيه – وكان في قلبه ذكر لما هو فيه – ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب.

والثاني: هو التفهم لمعنى الكلام، وهو أمر وراء حضور القلب، فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون مع

معنى اللفظ؛ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم، وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ لا يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات . . . وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر، فإنها تُفَهم أموراً؛ تلك الأمور تمنع عن الفحشاء لا محالة.

والثالث: التعظيم وهو أمر وراء حضور القلب والفهم، إذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظماً له فالتعظيم زائد عليهما.

والرابع: وهو الهيبةُ فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً، والمخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسه لا تسمى مهابة، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة، والهيبة خوف مصدرها الإجلال.

والخامس: وهو الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكًا من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا

يرجو مثوبته، والعبد ينبغي أن يكون راجيًا بصلاته ثواب الله عزَّ وجلَّ كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عزَّ وجلَّ.

السادس: وهو الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصيرٍ وتوهم ذنب، ويتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب.

وأما أسباب هذه المعاني الستة: فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيما يهمك. ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيما الهمَّة مصروفةٌ إليه من أمور الدنيا، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن الغرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخر خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهماتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا

يقدر على مضرتك ومنفعتك، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنَّن أن له سببًا سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقويته.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه الذي هو علاج إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر، وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها، أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها، وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر، فمن أحب شيئًا أكثر ذكره، فذكر المحبوب يهَجم على القلب بالضرورة، ولذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر.

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين: إحداهما: معرفة جلال الله عزَّ وجلَّ وعظمته وهو من أصول الإيمان. فإن من لا يعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه. والثانية حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوبًا، حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم، وما لم تمتزج معرفة حقارة

النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله، لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه.

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص ذلك من ملكه ذرة، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض، وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة.

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عزَّ وجلَّ وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة، فإذا حصل اليقينُ بوعده والمعرفةُ بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة.

وأما الحياء فباستشعار التقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عزَّ وجلَّ، ويقْوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وخبث دخيلتها وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها، مع

العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عزَّ وجلَّ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقينًا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طُلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين، أعني به هذه المعارف التي ذكرناها، ومعنى كونها يقينًا انتفاءُ الشك واستيلاؤها على القلب، وبقدر اليقين يخشع القلب، وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتمم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها، وإلى من يتمم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما ي جري بين يديه، ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الاسطوانة في المسجد وقد اجتمع الناس عليها، وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على يمينه ويساره، وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصُهم.

وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم

وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه أو ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه لاشتغال همه عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه ﴿ **وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا** ﴾ [الأحقاف: ١٩]، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقعَ نظر الله سبحانه القلوبُ دون ظاهر الحركات، ولذلك قال بعض الصحابة ﷺ: يحشر الناس يوم القيامة على مثل هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة، ولقد صدق، فإنه يحشر كلٌّ على ما مات عليه، ويموت على ما عاش عليه، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه، فمن صفات القلوب تُصاغُ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، نسأل الله حُسن التوفيق بلطفه وكرمه.

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظمًا لله عزَّ وجلَّ وخائفًا منه وراجيًا له ومستحييًا من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه، وإن كانت قوتها بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة.

ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه. وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرًا خارجًا أو أمرًا في ذاته باطنًا، أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سببًا للافتكار، ثم تصير بعض تلك الأفكار سببًا للبعض الآخر.

ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل

لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي صلاتك في شغل المجاذبة، ومثاله: رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تهوش عليه، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التنفير بالخشبة، فقيل له: إن أردت الخلاص فاقطع الشجرة، فكذلك شجرة الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذاب العصافير إلى الأشجار وانجذاب الذباب إلى الأقذار، والشغل يطول في دفعها، فإن الذباب كلما ذُبَّ آب، ولأجله سمي ذباباً، فكذلك الخواطر، وهذه الشهوات كثيرة وقلمّا يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد.

ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتزود ولا ليستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفوَ له لذة المناجاة في الصلاة، فإن مَنْ فرح بالدنيا لايفرح بالله سبحانه وبمناجاته.

وهمة الرجل مع قرة عينه، فإن كانت قرة عينه في

الدنيا انصرف لا محالة إليها همه، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة، فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عُضالاً، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدّثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك، فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا.

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بِخَلّ، فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج من الخل لا محالة ولا يجتمعان.



بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة

فنقول: حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها، أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائمًا والنية.

فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة، وتشمّر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين يُنادَون باللطف يوم العرض الأكبر، فاعرض قلبَك على هذا النداء فإن وجدته مملوءًا بالفرح والاستبشار مشحونًا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبُشرى والفوز يوم القضاء. ولذلك قال ﷺ: «أرحنا بها يا بلال» (١) أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها ﷺ.

(١) رواه الدارقطني في «العلل» من حديث بلال ونحوه عند أبي داود عن رجل من الصحابة لم يسمه بإسناد صحيح.

وأمـا الطهـارةُ فـإذا أتيت بهـا في مكانك وهو ظَرفُك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافُك الأقرب، ثم في بشرتك وهي قِشرُك الأدنى فلا تغفل عن لُبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرّطت، وتصميم العزم على الترك في المستقبل، فطهّر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك.

وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق، فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلْق، فما بالك في عوراتِ باطنك وفضائح سرائرك التي لا يطّلع عليها إلا ربك عزَّ وجلَّ! فأحضر تلك الفضائح ببالك وطالب نفسك بسترها، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر، وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف، فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكامنهما ويستكين تحت الخَجْلة قلبُك، وتقوم بين يدي الله عزَّ وجلَّ قيام العبد المجرم المسيئ الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

وأما استقبال القبلة فهو صرفُ ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عزَّ وجلَّ ليس مطلوبًا منك؟ هيهات، فلا مطلوب سواه، وإنما هذه الظواهر تحريكات البواطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب، فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عزَّ وجلَّ فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك.

وأما الاعتدال قائمًا فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عزَّ وجلَّ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مُطْرِقًا مُطَأْطِئًا مُنكَّسًا، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهًا على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبرّي عن الترؤّس والتكبرّ، وليكن على ذكرك ههنا خَطَرُ القيام بين يدي الله عزَّ وجلَّ في هول المطلع عند العرض للسؤال واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عزَّ وجلَّ وهو مطَّلعٌ عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن

كنت تعجز عن معرفة قدْره جلّ جلالُه، بل قدّر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كالئَة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب في أن يعرفك بالصلاح، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخشع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع، وإذا أحسست من نفسك خشوعًا عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: إنك تدّعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده؟ أو تخشين الناس ولاتخشينه وهو أحق أن يُخشى؟ ولذلك لما قال أبو هريرة: كيف الحياء من الله؟ فقال ﷺ: «تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك»[1]، وروي: «من أهلك».

وأما النية فاعزم على إجابة الله عزَّ وجلَّ في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه رجاء لثوابه وخوفًا من عقابه

(١) رواه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» وفي إسناده نظر.

وطلبًا للقربة منه، متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك، وعظّم في نفسك قدر مناجاته وانظر مَن تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفرّ وجهك من الخوف.

وأما التكبير فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبُك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب، وإن كان الكلام صدقًا كما شهد على المنافقين في قولهم: إنه ﷺ رسول الله. فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عزَّ وجلَّ فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك «الله أكبر» كلامًا باللسان المجرد، وقد تخلف القلب عن مساعدته؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحُسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه . .

وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض» وليس المراد بالوجه

الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة والله سبحانه ليس هنالك، وإنما وَجْهُ القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض، فانظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق، متبعٌ للشهوات، أو مقبلٌ على فاطر السموات؟ وإياك أن تكون أول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق.

ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقًا، وإذا قلت: «حنيفًا مسلمًا» فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده، فإن لم تكن كذلك كنت كاذبًا، فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال، وإذا قلت: «وما أنا من المشركين» فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)** ﴾ [الكهف: ١١٠] نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس، وكن حذرًا مشفقًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة

في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت: «محياي ومماتي لله» فاعلم أن هذا حال عبدٍ مفقودٍ لنفسه موجودٍ لسيده، وأنه إن صدر ممن رغبتُهُ في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائمًا للحال.

وإذا قلت: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فاعلم أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله عزَّ وجلَّ حسدًا لك على مناجاتك مع الله عزَّ وجلَّ وسجودك له، مع أنه لُعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفق لها، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحبه الله عزَّ وجلَّ لا بمجرد قولك، فإن من قصده سَبُعٌ أو عدو ليفترسه أو يقتله فقال: أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه، فإن ذلك لا ينفعه، بل لا يعيذه إلا تبديل المكان؛ فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن فلا يغنيه مجرد القول، فليقترن

قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عزَّ وجلَّ عن شر الشيطان.

واعلم أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأ.

فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس، فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها، فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة: رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره، وهي درجات أصحاب اليمين، ورجل سبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه.

ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلِّم القلب، والمقرَّبون لسانُهم ترجمانٌ يتْبَع القلبَ ولا يتْبَعُه القلبُ. وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ فَأْنوِ به التبرك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه، وافهم أن الأمور كلها بالله سبحانه، فلا جرم كان ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من

الله، ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخَّر من الله عز وجلَّ ففي تسميته وتحميده نقصانٌ بقدر التفاته إلى غير الله تعالى، فإذا قلت: ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ فأحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمته فينبعث بها رجاؤك، ثم استَثرْ من قلبك التعظيم والخوف بقولك: ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه ثم جدد الإخلاص بقولك: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وجدد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بإعانته وأن له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته، ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين، ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقًا فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الذي يسوقنا

إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك وزده شرحًا وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل: ﴿آمين﴾ فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون منالذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبيّ ﷺ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى، حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدَّني عبدي، وقال مرة: فوض إليَّ عبدي، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل، فإذا قال اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال هذا لعبدي ولعبدي ماسأل» رواه مسلم، فلو لم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته

فناهيك بذلك غنيمة، فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور – كما سيأتي الكلام على تلاوة القرآن – فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه، ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد؛ والخوف حق الوعيد؛ والعزم حق الأمر والنهي؛ والاتعاظ حق الموعظة، والشكر حق ذكر المنة، والاعتبار حق إخبار الأنبياء.

ورُوي أن زُرارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ** ⑧ ﴾ [المدثر: ٨] خر ميتًا[١]، وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى: ﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ** ① ﴾ [الإنشقاق: ١] اضطرب حتى تضطرب أوصاله، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر، والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات، فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً، ثم يراعي الهيبة في القراءة، فيرتل ولا يسرد **فإن**

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٢٥٨) وفي سنده عون بن ذكوان، قال الدراقطني: متروك.

ذلك أيسر للتأمل، ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد.

كان النخعي إذا مر بمثل قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ**﴾ [المؤمنون: ٩١] يخفض صوته كالمستحيي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به(١) وروي أنه يقال لقاريء القرآن: «إقرأ وارْق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا»(٢)، وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عزَّ وجلَّ على نعت واحد من الحضور قال ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ مقبل على المصلي ما يلتفت»، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة، فإذا التفت إلى غيره فذكّره باطلاع الله عليه ويقبح التهاون بالمناجَى عند غفلة المناجي ليعود إليه، وألزم لخشوع القلب، فإن الخلاص عن الالتفات باطنًا وظاهرًا ثمرة الخشوع.

---

(١) مثل هذا يحمل على الصلاة انفرادًا أما الجماعة فالمنبغي وصول الصوت إلى المأموم لعدم ورود السنة بخلاف ذلك.

(٢) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسنٌ صحيح.

وكان الصدّيق رضي الله عنه في صلاته كأنه وَتدٌ، وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عُودٌ، وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي، ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عزَّ وجلَّ خاشعًا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثًا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عزَّ وجلَّ وعن اطلاعه على سره وضميره، وقال عكرمة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩)** ﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] قال: قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه.

وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وترفع يديك مستجيرًا بعفو الله عزَّ وجلَّ من عقابه بتجديد النية ومتبعًا سنة نبيه ﷺ، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعًا بركوعك، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك وتستشعر ذُلَّكَ وعزَّ مولاك واتّضاعك وعُلُوَّ ربك.

وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار، ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك: «سمع الله لِمنْ حمده» أي أجاب لمن شكره، ثم تردف ذلك الشكر المتقاضي للمزيد فتقول: «ربنا لك الحمد» وتكثرّ الحمد بقولك: «ملء السموات وملء الأرض» ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتمكّن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب، وإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدلُّ على الذل.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت، وإليه تعود، فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل: «سبحان ربي الأعلى» وأكده بالتكرار فإن الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فلتصدّق رجاءَك في رحمة الله فإن

رحمته تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبَطَرَ فارفع رأسك مكبراً وسائلاً حاجتك وقائلاً: « رب اغفر لي رب اغفر لي » ثم أكد التواضع بالتكرار فعُدْ إلى السجود ثانياً كذلك.

وأما التشهد فإذا جلست له فاجلس متأدبًا وصرح بأن جميع ما تدلي من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله، وكذلك الملك لله وهو معنى « التحيات »(١)، وأحضر في قلبك النبيَّ ﷺ وشخصه الكريم وقل: « سلامٌ عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » وليصدُق أَمَلُك في أنه يبلُغُه ويردُّ عليك ما هو أوفى منه، ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين، ثم تَأْمُلُ أن يرد الله سبحانه عليك سلامًا وافيًا بعدد عباده الصالحين، ثم تشهد له تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفًا للتحصن بها.

ثم ادعُ في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضراعة والابتهال وصدق الرجاء بالإجابة وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين.

---

(١) قال في القاموس: التحية .. الملك.

واقصد عند التسليم السلامَ على الملائكة والحاضرين وانْوِ ختم الصلاة به. واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها، ثم أَشْعِر قلبك الوجلَ والحياء من التقصير في الصلاة، وخَفْ ألا تُقبل صلاتُك وأن تكون ممقوتًا بذنب ظاهر أو باطن فتردَّ صلاتك في وجهك، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله.

كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شاء الله تُعرف عليه كآبة الصلاة. وكان إبراهيم يمكث بعد الصلاة ساعة كأنه مريض، فهذا تفصيل صلاة الخاشعين ﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ** (٢) ﴾ [المؤمنون: ٢] .. ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** (٩) ﴾ [المؤمنون: ٩] .. ﴿ **الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** (٢٣) ﴾ [المعارج: ٢٣] والذين يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقدر الذي يُسِّر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر.

وأما صلاة الغافلين فهي مَخْطرة[١] إلا أن يتغمده الله برحمته، والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بطاعته.

واعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عزَّ وجلَّ وأداؤها بالشروط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سببٌ لحصول أنوارٍ في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة، فأولياء الله المكاشفون بملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية إنما يكاشفون في الصلاة لا سيما في السجود إذ يتقرب العبد من ربه عزَّ وجلَّ بالسجود، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ** ﴿١٩﴾ ﴾ [العلق: ١٩] وإنما تكون مكاشفة كل مصل على قدر صفائه عن كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة والجلاء والخفاء حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء

---

(١) أي مكان خطر، كمَسْبَعَة أي أرض بها سباع.

بمثاله، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والشيطان في صورة كلب جاثم عليها يدعو إليها.

ويختلف أيضاً بألوان المكاشفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة.

ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى، وأشدّها مناسبة الهمة، فإذا كانت مصروفة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف، ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى إلا في المرائي الصقيلة وكانت المرآة كلها صدئة فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لِخَبَث متراكم الصدأ على مَصَبّ الهداية؛ تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر، ولو كان للجنين عقل لأنكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء، ولو كان للطفل تمييزٌ ما ربما أنكر ما يزعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات

والأرض، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده، والمقصود أن كل ذلك لا يحصل إلا بالخشوع في الصلاة ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)** ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة هي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضًا فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩)** ﴾ [المؤمنون: ٩] ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات: ﴿ **أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)** ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] فوصفهم بالفلاح أولاً وبوراثة الفردوس آخرًا، وأما هذرمة اللسان مع غفلة القلب فلا تنتهي إلى هذا الجزاء، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ في أضدادهم: ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣)** ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣] فالمصلون هم ورثة الفردوس وهم المشاهدون الله تعالى والمتمتعون بقربه ودنوه.

نسأل الله أن يجعلنا منهم وأن يعيذنا من عقوبة من تزينت أقواله وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مُصطفى)[١].

---

(١) «إحياء علوم الدين» بتصرف وإختصار (١/ ١٦١ - ١٧١).

تحصيل لذة التلاوة وقراءة القرآن [1]

اعلم أن هذه اللذة لن تحصل إلا بتوافر عشرة آداب عند تلاوة القرآن الكريم هي : (فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلي عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثر ، ثم الترقي ، ثم التبرّي) .

فالأول: فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه . فلينظر كيف لَطَف بخلقه في إيصال معاني كلامه إلى أفهام خلقه؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن

(١) اعلم أن الغزالي رحمه الله ساق هذه الوظائف في حقٍ من اكتملت لديه الآلة في فهم النظم العربي عمومًا والنظم القرآني خصوصًا ، فتلك الوظائف والآداب المذكورة ، لن تغني فتيلاً عن الرجوع لكتب التفسير ومطالعة ما سطره أئمة التأويل وبخاصة سلف الأمة الصالح ونحثك على مطالعة التفاسير الأثرية والتربوية « كتسفير ابن كثير » وتفسير « السعدي » ، ولا تحرم نفسك من تفيؤ « ظلال القرآن » فستغنم إن شاء الله .

الوصول إلى فهم صفات الله عزَّ وجلَّ إلا بوسيلة صفات نفسه، ولو لا استتار كنه جلالة كلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولا ثري ولَتَلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسُبُحُات نوره(١). ولو لا تبييت الله عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام لما أطاق لسماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تحليه حيث صار دكا(٢).

الثاني: التعظيم للمتكلم: فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله عزَّ وجلَّ غاية الخطر فإنه تعالى قال: ﴿ **لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ** (٧٩) ﴾ [الواقعة: ٧٩] وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً، فباطن معناه أيضًا بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا

---

(١) قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]

(٢) قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف: ١٤٣]

إذا كان يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش واستواء ربه عليه، والكرسي الذي وسع السموات والأرض، واستحضَرَ مشهد السموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار وعَلِمَ أن الخالق لجميعهاوالقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نِقْمته وسَطْوته، إن أنعم فبفضله وإن عاقب فبعدله، وأنه الذي يقـــول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالي، فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس: قيل في تفسير: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [مريم: ١٢] أي بجد واجتهاد، وأخذ بالجد أن يكون متجردًا له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره، وقيل لبعضهم: إذا

قرأت القرآن تحدّثُ نفسك بشيء؟ فقال: أو شيء أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أحدّث به نفسي! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية. وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، ففي القرآن مايستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو متنزه ومتفرج، والذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها، فقد قيل إن القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياض.

فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديباج وتنزه في الرياض استغرقه ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره.

الرابع: التدبر: وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره والمقصود من القراءة التدبر، ولذلك سُنَّ الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن، قال علي

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها.

وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسيئًا مثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه، وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها أمامُه فهذا وسواس. فقد روي عن عامر بن عبد قيس أنه قال: الوسواس يعتريني في الصلاة، فقيل: في أمر الدنيا؟ فقال: لأن تختلف فيّ الأسنَّة أحب إليَّ من ذلك، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربي عزَّ وجلَّ، وأني كيف انصرف، فعدّ ذلك وسواسًا وهو كذلك، فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه، والشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بمهمٍّ ديني، ولكن يمنعه به عن الأفضل.

وعن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقام بآية

يرددها وهي: ﴿ إن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ.. ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴾ [الجاثية: ٢١] الآية، وقام سعيد بين جبير ليلة يردد هذه الآية: ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾ [يس: ٥٩] وقال بعضهم: إني لأفتح السورة فيوقفني بعضُما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر، وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثوابًا، وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولو لا أني أقطْع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها، وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها، وقال بعضهم: لي في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه، وكان هذا أيضًا

يقول: أقمت نفسي مقام الأجراء فأنا أعمل مياومةً ومجامعةً ومشاهرةً ومسانهةً(١).

الخامس: التفهم: وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عزَّ وجلَّ، وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفات الله عزَّ وجلَّ كقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** (١١)﴾ [الشورى: ١١] وكقوله تعالى: ﴿**الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ**﴾ [الحشر: ٢٣] فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للمُوفَّقين: وإليه أشار علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بقوله شيء سوى القرآن؟ فقال: لا والذي خلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن

(١) أي بأجر كل يوم وكل جمعة وكل شهر وكل سنة، يشير إلى ختماته في تلك الأزمنة.

يعطي الله عبداً فهماً في كتابه. وأما أفعاله تعالى مثل ذكره خلق السموات والأرض وغيرها، فليفهم التالي منها صفات الله عزَّ وجلَّ وجلاله إذا الفعل يدل على الفاعل فتدل على عظمته، وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام: فإذا سمع منها كيف كُذّبوا وضُربوا وقُتل بعضهم. فليفهم منه صفة الاستغناء لله عزَّ وجلَّ عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيء، وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عزَّ وجلَّ وإراداته لنصرة الحق، وأما أحوال المكذبين؛ كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أُمهل فربما تدركُه النقمة وتنفُذ فيه القضية، وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن، فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد بقدر رزقه، ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا** (١٠٩) ﴾ [الكهف: ١٠٩].

فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه فأمه الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ** ﴾ [محمد : ١٦] والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، وحُجُب الفهم ثلاثة:

أولها: أن يكون الهم منصرفًا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطانٌ وكُلٌ بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عزَّ وجلَّ فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه، فهذا يكون تأمُّلُه مقصوراً على مخارج الحروف

فأنى تنكشف له المعاني؟ وأعظم ضحكة للشيطان ممن كان مطيعًا لمثل هذا التلبيس.

ثانيها: أن يكون مقلدًا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة، فهذا شخص قيَّده معتقدهُ عن أن يتجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفًا على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويتحرز عن مثله، ومثله من يقرأ قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وما يحتويه معنى الآية من علو الله عزَّ وجلَّ على كل مخلوقاته وهيمنته وتصرفه في كل الموجودات فيجيئه تقليد المعتقدات الموروثة في وجوب تنزيه الله عن الجهة فيُحرم من تجليّات تأمل صفة العلو والاستواء وهي من الصفات التي تكررت

في القرآن بغرض التنبيه على جلال الله وعظمته وحقيقة علوه على خلقه.

ثالثها: أن يكون مصراً على ذنب أو متصفًا بكبر أو مبتلي في الجملة بهوىً في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه، وهو كالخبث على المرآة وهو أعظم حجاب للقلب وبه حُجب الأكثرون.

وكلما كانت الشهوات أشدّ تراكمًا كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قَرُبَ تجلي المعنى فيه. فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة. والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة، وقد شرط الله عزَّ وجلَّ الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ⑧ ﴾ [ق: ٨] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ⑬ ﴾ [غافر: ١٣] ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ⑨ ﴾ [الزمر: ٩] فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب.

السابع: التخصيص وهو أن يقدّر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمرًا أو نهيًا قدّر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَّمَرَ غيرُ مقصود، وإنما المقصود ليعتبر به وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبيِّ ﷺ وأمته. ولذلك قال تعالى: ﴿ **مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ** ﴾[هود: ١٢٠] فليقدّر العبد أن الله ثبت فؤاده بما قصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى.

وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أنزل على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ** ﴾[البقرة: ٢٣١] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** (١٠) ﴾

[الأنبياء: ١٠]، ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ③ ﴾ [محمد: ٣]، ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ⑳ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ⑬⑧ ﴾ [آل عمران: ١٣٨] وإذا قُصد بالخطاب جميعُ الناس فقد قصد الآحاد، فهذا القارئ الواحد مقصود، فماله ولسائر الناس، فليقدر أنه المقصود، قال الله تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] قال محمد بن كعب القُرظي: من بلغه القرآن فكأنما كلمه الله، وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه، ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أَتَتْنَا من قِبَل ربنا عزَّ وجلَّ بعهود نتدبرها في الصلوات ونقف عليها في الخلوات ونُنْفِذُها في الطاعات والسنن المتبعات، وكان مالك ابن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن؟ إن

القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض، وقال قتادة: لم يجالس أحد القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢)﴾ [الإسراء: ٨٢].

الثامن: التأثر، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حالٌ وَجَدٌ يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه، فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا يُرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقرونًا بشروط يقْصُرُ العارف عن نيلها كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ﴾ [طه: ٨٢] ثم أتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢)﴾ [طه: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [سورة العصر] ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر شرطًا جامعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ [الأعراف : ٥٦] فالإحسان يجمع الكل، وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن.

ولذلك قال الحسن: والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كَثُر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه وكثر نَصَبُه وشُغُله وقلت راحته وبطالته، وقال وهُيب بن الوَرْد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئًا أرقَّ للقلوب ولا أشدّ استجلابًا للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره، فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة.

فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت؛ وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح.

وعند ذكر الله صفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعاراً لعظمته.

وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عزَّ وجلَّ

كذكرهم لله عزَّ وجلَّ ولداً وصاحبة يغُضُّ الصوت وينكسر في باطنه حياءً من قبح مقالتهم. وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها.

وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفًا منها، ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: «اقرأ علي» قال: فافتتحت سورة النساء فلما بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) ﴾ [النساء: ٤١] رأيتُ عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: «حسبك الآن» رواه البخاري، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية، ولقد كان من الخائفين من خرّ مغشيًا عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع الآيات، فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيًا في كلامه. فإذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) ﴾ [يونس: ١٥] ولم يكن خائفًا كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا

آذَيْتُمُونَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة. فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه ي قوله تعالى: ﴿ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۝١٨ ﴾ [هود: ١٨] وفي قوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف: ٣] وفي قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ ﴾ [الأنبياء: ١] وفي قوله: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٢٩ ﴾ [النجم: ٢٩] وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝١١ ﴾ [الحجرات: ١١] إلى غير ذلك من الآيات، وكان داخلاً في معنى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة: ٧٨] يعني التلاوة المجردة، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥ ﴾ [يوسف: ١٠٥] لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان مُعرِضًا عنها، ولذلك قيل: إن من

لم يكن متصفًا بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك وكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي إن لم تتب إليَّ. ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه؛ فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت، ولذلك قال يوسف ابن أسباط : إني لأهَمُّ بقراءة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المقت فاعدل إلى التسبيح والاستغفار(١).

والمعرض عن العمل به أريد بقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ **فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** (١٨٧) ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ولذلك قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه — وفي

---

(١) وليس هذا على الدوام وإلا أدى إلى هجر القرآن، ويحمل فعل يوسف على المجاهدة بالتسبيح والاستغفار حتى يتأهل لتحمل تبعة القراءة، وهذا واضح ولا ريب، فإن اتكأ على فعلة يوسف بن أسباط بطَّالٌ فهَجَرَ القرآن وردَّد هذه الحجة فهو نصيبه من بطالته وحرمانه.

بعض الروايات – فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) ﴾ [الأنفال : ٢]، وقال ﷺ : « إن أحسن الناس صوتًا بالقرآن إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » (١) وقال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانيًا فانتهرني وقال : جعلت القرآن عليّ عملاً اذهب فاقرأ على الله عزَّ وجلَّ، فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال، فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفًا من الصحابة(٢) لم يحفظ منهم القرآن إلا ستة اختلف في اثنين منهم، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة :

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » وأبو نعيم في « أخبار الصحابة » وصححه الألباني في « الصحيحة » (١٥٨٣) .

(٢) بل مائة ألف وأكثر كما قال أبو زرعة رحمه الله .

٧ ، ٨] قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: «انصرف الرجل وهو فقيه» رواه أبو داود والحاكم وصححه، وإنما العزيز مثل تلك الحالة التي منَّ الله عزَّ وجلّ بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية.

فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى، بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ** (١٢٤) ﴾ [طه: ١٢٤] وبقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ **كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ** (١٢٦) ﴾ [طه: ١٢٦] أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر، وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

التاسع: الترقي: وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع

الكلام من الله عزَّ وجلَّ لا من نفسه، فدرجات القرآن ثلاث، أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عزَّ وجلَّ واقفًا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير: السؤال والتملق والتضرعَ والابتهال، الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عزَّ وجلَّ يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسان فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم، الثالثة: أن يري في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصور الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره(١). وهذه درجة المقربين وما قبله درجة أصحاب اليمين وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين.

العاشر: التبّري: وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته

---

(١) ودليل هذه الدرجات قوله ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» متفق عليه.

والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا تلا بآيات الوعيد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، بل يشهد الموقنين والصديقين فيها، ويتشوق إلى أن يلحقه الله عزَّ وجلَّ بهم، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصّرين شهد على نفسه هناك، وقدّر أنه المخاطب خوفًا وإشفاقًا.

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: اللهم إني استغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر. فتلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقيل ليوسف ابن أسباط: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ فقال: استغفر الله عزَّ وجلَّ من تقصيري سبعين مرة، فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيتُه سببَ قربه، فإن من شهد البعد في القرب لُطِف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها، ومن شهد القرب في البعد مُكِر به في الأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه.

ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوبًا

بنفسه عن الله »[١]. وكان الشافعي يقول:

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعةْ
وأكره من تجارته المعاصي ... وإن كنا سواءً في البضاعةْ

وكان يقول أيضًا رحمه الله:

فعين الرضا عن كل عيب كليلةٌ ... كما أن عين السخط تبدي المساويا



(١) من الإحياء بتصرف واختصار (١/ ٢٨٠ -٢٨٨).

وسائل تحصيل ثمرة الدعاء

الأول: أن يترصّد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ورمضان من الأشهر والجمعة من أيام الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل.

قال تعالى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٨]، وقال ﷺ: « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عزَّ وجلَّ: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » متفق عليه، وقيل إن يعقوب عليه السلام إنما قال: « سوف أستغفر لكم ربي » ليدعو في وقت السحر.

فقيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤَمّنون خلفه فأوحى الله عزَّ وجلَّ إني قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء.

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالي وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات

المكتوبة فاغتنموا الدعاء فيها وقال مجاهد: إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصفوف، وقال ﷺ: «الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد» رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه، وقال ﷺ أيضًا: «الصائم لا ترد دعوته» رواه الترمذي وحسنه، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذْ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المهوّشات.

ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عزَّ وجلَّ فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يُطَّلعُ عليها، وحالة السجود أيضًا أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال النبيّ ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه عزَّ وجلَّ وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء» رواه مسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «إني نُهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجداً فأما الركوع فعظّموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قَمِنٌ[1] أن يستجاب لكم» رواه مسلم.

---

(١) قمن: جدير.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يُرى بياضُ إبطيه أو يرفع يديه قبالة وجهه أو نحو ذلك أو يرفع أصبعه السبّابة، وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ: «أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس» رواه مسلم، وقال سلمان ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن ربكم حييٌ كريم يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفراً» رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وعن أنس ﷺ أنه ﷺ: «كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء» رواه مسلم، وعن أبو هريرة ﷺ أنه ﷺ مر على إنسان يدعو ويشير بإصبعية السبابتين فقال ﷺ: «أَحِّدْ أَحِّدْ» رواه النسائي وابن ماجة، أي اقْتَصِرْ على الواحدة، وقال أبو الدرداء ﷺ: ارفعوا هذه الأيدي قبل أن تُغَلَّ بالأغلال وقال ابن عباس ﷺ كان ﷺ: «إذا دعا ضم وجعل بطونهما مما يلي وجهه» أخرجه الطبراني بإسناد فيه ضعف، فهذه هيئات اليد، ولا يرفع بصره إلى السماء، قال ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارهم» رواه مسلم.

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما ورد أن أبا

موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قدمنا مع رسول الله ﷺ فلما دنونا من المدينة كبَّر وكبَّر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبيُّ ﷺ: «يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأَصَمَّ ولا غائب» متفق عليه، وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] أي: بدعائك، وقد أثنى الله عزَّ وجلَّ على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

الخامس: أن لا يتكلف السَّجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع، والتكلف لا يناسبه، قال ﷺ: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء» رواه أبو داود وابن ماجة، وقد قال عزَّ وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل معناه التكلف للأسجاع، والأولى أن لا يجاوز الدعوات المأثورة، فإنه قد يتعدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته، فما كلُّ أحد يحسن الدعاء، ولذلك روي عن معاذ رضي الله عنه: إن العلماء يُحْتاج إليهم في الجنة إذا يقال لأهل الجنة تمنوا فلا

يدرون كيف يتمنَّون حتى يتعلموا من العلماء، وفي الخبر: سيأتي قوم يعتدون في الدعاء والطُّهور، ومر بعض السلف بقاص يدعو بسجع فقال له: أعَلَى الله تبالغ؟ أشهد لقد رأيت حبيبًا العجمي يدعو وما يزيد على قوله: اللَّهُمَّ اجعلنا جيّدين، اللَّهُمَّ لا تفضحنا يوم القيامة، اللَّهُمَّ وفقنا للخير، والناس يدعون من كل ناحية وراءه وكلٌ يعرف بركة دعائه.

وقال بعضهم: ادع بلسان الذّلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

ويقال إن العلماء لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها، ويشهد له آخر سورة البقرة، فإن الله تعالى، لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك.

واعلم أن المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام، فإن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية المأثورة عن رسول الله ﷺ كلمات متوازنة لكنها غير متكلَّفة كقوله ﷺ: «**أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الشهود والركَّعَ السجود الموفين بالعهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد**» رواه الترمذي وقال:

غريب، وأمثال ذلك، فليقتصر على المأثور من الدعوات أو ليلتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عزَّ وجلَّ.

السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا** ﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ **ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً** ﴾ [الأعراف: ٥٥].

السابع: أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاؤه فيه. قال رسول الله ﷺ: «**لا يقل أحدكم إذا دعا اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مُكْرِه له**» متفق عليه، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا دعا أحدكم فليُعظِم الرغبة فإن الله لا يَتعاظَمُه شيء**» رواه ابن حبان، وقال ﷺ: «**ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عزَّ وجلَّ لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ**» رواه الترمذي وقال: غريب، وقال سفيان ابن عيينةً: لا يمنعَّن أحدكم من الدعاء ما يعلمُ من نفسه فإن الله عزَّ وجلَّ أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله إذ قال:

﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧)﴾ [الحجر: ٣٦، ٣٧].

الثامن: أن يُلِحَّ في الدعاء ويكرره ثلاثًا قال ابن مسعود: «**كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثًا وإذا سأل سأل ثلاثًا**» رواه مسلم، وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة لقوله ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يعجّل فيقول قد دعوتُ فلم يُستجب لي، فإذا دعوتَ فاسأل الله كثيراً فإنك تدعوا كريمًا**» متفق عليه، وقال بعضهم: إني سألت الله عزَّ وجلَّ منذ عشرين سنة حاجة وما أجابني وأنا أرجو الإجابة، سألت الله أن يوفقني لترك ما لا يعنيني.

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عزَّ وجلَّ فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه: «**ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتتح الدعاء إلا استفتحه بقوله: سبحان ربي العليِّ الأعلى الوهاب**» رواه أحمد والحاكم فيه ضعف، قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجته فليبدأ بالصلاة على النبيِّ ﷺ فإن الله عزَّ وجلَّ يقبل الصلاتين وهو أكرم أن يدع ما بينهما.

العاشر: وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عزَّ وجلَّ بكُنْه الهمة فذلك هو السبب القريب في الإجابة، فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى رسول الله ﷺ فخرج موسى ببني إسرائيل يستقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يُسقَوا، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى عليه السلام: إني لا أستجيب لك ولمن معك وفيكم نمام، فقال موسى: يارب ومن هو حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نمامًا! فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأَجْمُعكُم عن النميمة فتابوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث. وقال سفيان الثوري: بلغني أن بني إسرائيل قُحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم بأقدامكم حتى تَحْفَى رُكَبُكُم وتبلغَ أيديكم عنان السماء وتَكلَّ ألسنتكم عن الدعاء فإني لا أجيب لكم داعيًا ولا أرحم لكم باكيًا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فمُطروا من يومهم.

وقال مالك بن دينار: أصاب الناس في بني إسرائيل قحطٌ فخرجوا مراراً فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلي نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة وترفعون إلي أكُفًّا قد سفكتم بها الدماء وملأتم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بعداً.

وقال أبو الصدّيق الناجي: خرج سليمان عليه السلام يستقي فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللَّهُمَّ إنَّا خلقٌ من خلقكَ ولا غنى بنا عن رزقك فلا تُهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان عليه السلام: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

وقال الأوزاعي: خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر من حضر ألستم مقرّين بالإساءةَ؟ فقالوا: اللَّهُمَّ نعم، فقال: اللَّهُمَّ إنا قد سمعناك تقول: ﴿**مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾[التوبة: ٩١] وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؛ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا؛ فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا.

وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا فقال: إنكم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجارة.

ورُوي أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام: من أصاب منكم ذنبًا فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفازة إلا واحد، فقال له عيسى عليه السلام: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما عملت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فانتزعتها وتبعت المرأة؛ فقال له عيسى عليه السلام: فادع الله حتى أؤمن على دعائك، قال: فدعا فتجللت السماء سحابًا ثم صبَّت فسُقوا.

وقال يَحيى الغسّاني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نَعْتقَ أَرِقَّاءَك اللهم إنا أرقاؤك فأعتقنا، وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكنيك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا.

وقال عطاء السلمي: منعنا الغيث فخرجنا نستسقي

فإذا نحن برجل بين المقابر فنظر إليَّ فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أو بُعْثِرَ ما في القبور؟ فقلت: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي، فقال: يا عطاء بقلوب أَرْضِيَّة أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية فقال: هيهات يا عطاء، قل للمُتَبَهْرِجين لا تَتَبهْرَجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطَرْفٍ وقال: إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ولكن بالسر المكنون من أسمائك إلا ما سقيتنا ماء غَدَقًا فُراتًا تحيي العباد وتروي به البلاد؛ يا من هو على كل شيء قدير. قال عطاء: فما استَتَمّ الكلام حتى أَرْعَدَت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القِرَب.

وقال ابن المبارك: قَدِمتُ المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذْ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتَّزَرَ بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبي فسمعته يقول: إلهي أَخْلَقَت الوجوهَ عندك كثرةُ الذنوب ومساوي الأعمال وقد حبستَ عنا غيثَ السماء لتؤدب عبادك بذلك، فأسألك يا حليمًا ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل أن تسقيهم الساعة الساعةَ، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء

بالغمام وأقبل المطر من كل جانب، قال ابن المبارك: فجئت إلى الفضيل فقال: ما لي أراك كئيبًا؟ قلت أمر سَبَقنا إليه غيرُنا فتولاه ودنَنا، وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخرّ مغشيًا عليه. ويُروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس رضي الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك ﷺ وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة وأنت الراعي لا تهمل الضالة ولا تَدَعَ الكبير بدار مَضْيَعَة فقد ضَرَعَ الصغير ورقَّ الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى وأنت تعلم السر وأخفى اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ قال فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال»(١).



(١) «إحياء علوم الدين» بتصرف واختصار (١/٣٠٤-٣٠٩).

القاعدة العاشرة

إحياء الطاعات المهجورة والعبادات الغائبة

شأن التجارة الرابحة مع الله أن تتناول كل مَرَاضيه، والذي يفتش عن مرادات إلهه ومحابّه فيأتيها هو الحاذق في تجارته مع ربه عزَّ وجلَّ.

وقد اعتاد الناس عبادات معينة ظنوها هي وحدها الأبواب المفتوحة إلى الله، لكن ينبغي أن يكون الساعي في مرضات ربه بحّاثًا عن المسالك المهجورة والأبواب البعيدة ذات الطرق الوعَّرة التي تنكبت عنها إرادات الناس كسلاً أو عجزاً.

فمن تلك الطاعات التي غفل عنها الناس وأهملوها ولم نجد من يحافظ عليها إلا القليل: الاستغفار بالأسحار، وهي عبادة الصادقين قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾** ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧].

والسحر هو آخر الليل، وهو وقت السَّحُور، لذا استُحب أن يطعم مريد الصوم في هذا الوقت، ثم يستحب له أن يُبقى وقتًا يسيرًا قبل الفجر للاستغفار وطلب العفو والصفح والعتق من النار، وهذا الوقت زبدة الأوقات العامرة وخلاصة الأزمنة السائرة، تتصل الأرض بالسماء، ويعبق ليل المتهجدين بأنفاس الملائكة المُنزلة والألطاف الهاطلة، ويكون النزول الإلهي(١) المهيب في الثلث الأخير من الليل حيث الأقدام مصفوفة في محاريب التَّبْجيل، المآقي مُغْرَوْرِقَة فرحًا بقرب الكبير الجليل، والأيادي مرفوعة بالأدعية والتراتيل، والألسنة لهجة بالذكر وتلاوة التنزيل.

ومن تلك العبادات المهجورة: عبادة التفكر والتأمل في مخلوقات الله وعجائب قدره، والتدبر في أسمائه وصفاته وآلائه ونعمته قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**

---

(١) في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟».

وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) ﴾ [آل عمران: ١٩٠ ، ١٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾ [الأنعام: ٩٧ - ٩٩]، وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ

أَن اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

وغير ذلك من الآيات الدالة على قدرة الله الداعية إلى التفكر والتدبر والتأمل فيها.

واعلم أن هذه العبادة هي أصل طريق اليقين في الله عزَّ وجلَّ، وبهذا التدبر يثبت بالضرورة في الذهن وجود الرب الخالق المدبر ومن ثَمَّ إلهية هذا الرب المدبر واستحقاقه للعبادة دون غيره، وبهذا التقرير خاطب الله عزَّ وجلَّ المشركين مطالبًا إياهم بأن يتفكروا في هذه الحقائق، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾ [سبأ: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ

أفلا تتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

واعلم أيضًا أن هذه العبادة من أعظم ما يقرب الإنسان من ربه ويوقفه على جلاله وعظمته بل هي العلم الذي أشار الله عزَّ وجلَّ إليه باعتباره موصّلاً لخشية الله، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

ومن تلك اللعبادات الغائبة بين الناس عبادة التبتل، أي الانقطاع إلى الله.

(قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴿٨﴾ ﴾ [المزمل: ٨] والتبتل: الانقطاع، وهو تفعل من البَتْل وهو القطع، وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الأزواج، وعن أن يكون لها نظراً من نساء زمانها ففاقت نساء الزمان شرفًا وفضلاً، وقُطعت منهن، ومصدر بتل: تبتّلاً كالتعلّم

والتفهّم ولكن جاء على التفعيل مصدر - تفعّل - سر لطيف، فإن في هذا الفعل إيذانًا بالتدريج والتكّلف والتعمّل والتَكَثُّر والمبالغة، فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر، فكأنه قيل: بَتِّل نَفْسك إليه تبتيلاً، وتبتّل إليه تبتُّلاً، ففُهم المعنيان من الفعل ومصدره. فالتبتل الانقطاع إلى الله بالكلية»[١].

ومثل هذه العبادة تلازم الإنسان في كل زمان ومكان لا تنفك عنه، فهو بين الناس بجسمه ولكن روحه تطوف حول العرش، يكلمهم بمحياه ولسانه، لكن مشاهدة عظمة الله وجلاله في سويداء جنانه. يفرح مع الناس لفرحهم، لكن قلبه قد مُلئ وجلاً وخوفًا وخشية من ربه، يحزن مع الناس لحزنهم ولكن فؤاده قد ملئ أنسًا ورضًا وحبوراً بما قضى الله وقدر، إنه ذلك الحاضر الغائب الموجود المفقود بين الهياكل والصور والأجسام والغَير.

ومن العبادات المهجورة في هذا الشهر عبادة الصدقة

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (١ / ٤٧٢).

والإنفاق، وهي من أرجى الطاعات عند السالكين، والفقه فيها عظيمٌ أثرهُ في النفس. في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**كان النبي ﷺ أجودَ الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلَرَسُولُ الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجودُ بالخير من الريح المرسلة**».

قال الشافعي رحمه الله: أُحبُّ للرجل الزيادة بالجود في شهر رمضان اقتداءً برسول الله ﷺ ولحاجة الناس فيه إلى مصالحهم وتشاغل كثير منهم بالصوم والصلاة عن مكاسبهم.

وليس المقصود كثرة المُنْفَق، بل كثرة الإنفاق أي فعله وإن قل المال، وربّ درهم ينفقه امرؤٌ من درهمين يملكهما أحب إلى الله من مائة ينفقها مَنْ يملك الآلاف. قال ﷺ: «سبق درهم مائة ألف درهم: رجل له درهمان أخذ أحدهما فتصدق به، ورجل له مال كثير فأخذ من عرضه مائة ألف فتصدق بها» رواه النسائي عن غيره وهو حديث حسن.

وقد خرج أبو بكر من ماله كله وترك لأهله الله ورسوله

ﷺ، وخرج عمر من نصف ماله، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بقافلة قدمت المدينة بأحلاسها وأقتابها.

وأدبُ المتصدق أن يعلم منةَ الله عليه إذْ رزقه المال ثم وفقه للصدقة ويسر له من يقبل منه صدقته ثم تلقاها منه ربه وقبل منه ما رزقه.

وأن يتصدق بأفضل ما عنده ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وأن يتلطف في إعطائها للفقير أو المحتاج حتى لا يشعر بمنة العبد فيها، فيعمل على إخفائها أو إرسالها مع قريب له أو نحو ذلك.

وكان بعض السلف إذا أعطى الصدقة وضعها على كفه وناولها للفقير على يده مبسوطة حتى يتناولها الفقير بنفسه، فقيل له في ذلك! فقال حتى تكون يده هي اليد العليا، يشير إلى قوله ﷺ: «**واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى**» وهذا من لطيف ما يقوم به أولئك الأكابر. والله الموفق.

ومن الطاعات المهجورة بل من أعظمها تحديث النفس بالغزو والجهاد، وخاصة في شهر رمضان شهر المعارك

الكبرى كبدر وفتح مكة وغيرها، بل إن المتبادر من الحديث أن هذه الطاعة واجبة لا يجوز الانفكاك عنها، فقال ﷺ: «**من مات ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسه بالغزوِ مات على شعبة من نفاق**». رواه أحمد ومسلم، فالظاهر وجوب أحد الأمرين حتى يبرأ من هذا النفاق.

وفائدة تحديث النفس بالغزو: إحياء معاني الجهاد والعزة والولاء والنصرة للدين والبراءة من الكفر والشرك ومعاداة أهله، والوصول بالنفس إلى أعلى مراتب البذل وهو بذل الأرواح والمُهَج في سبيل الله.

ولقد هجرت هذه المعاني حتى صارت بين الملتزمين فضلاً عن المسلمين نَسْيًا مَنْسِيًا، وما أجدرنا أن نعاود إحياء هذه المعاني في هذا الشهر المبارك شهر الصبر والبذل وجهاد النفس.

فهذه بعض نماذج من العبادات المهجورة الغائبة، ولو تأملت قوله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شعبة أو بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى**

عن الطريق» لعرفت كم ضيع الناس من شعب الإيمان العملية وطرق الخير الموصلة لرضا الرب تبارك وتعالى، والله المستعان.



القاعدة الحادية عشرة
معرفة قطاع الطريق إلى الله

ها أنت قد شمرت عن ساعد الجد، وحثَثْت الهمة الخاملة، وأوقدت نار العزيمة الخامدة، وألجْمْتَ هواك بلجام الإرادة وجمعت رقاب الأماني بزمام التوكل على الله في الفعل، وبدأت السير إلى الله عزَّ وجلَّ لتصل إلى شهر رمضان وقد توقَّدَتْ عزيمتُك وانقادت لك إرادتُك وأذْعَنَتْ لك همتُك.

لقد بدأت المعركة الحقيقية مُذْ تمحّض اختيارك لله وجَدَّ سيرك إليه ويممْت القلب والقالب في الإقبال عليه، فاحذر حينئذ قطّاع هذا الطريق الوعْر، فإنه طريق الجنة، وهو محفوف بالشهوات والهوى والشياطين والنَزْغ والشبهات، وكلها أنواع الجنس واحد، وهو العائق عن الوصول لدرب القبول المُؤْذِن لشمس عَزْمِك بالأُفول.

فتعال معًا نتذاكر صفات بعض هؤلاء القطاع

ومَكَامِنَهُم وخدعهم، فبذلك تتعلم صفة الشر لتتجنبه:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقّيه ومن لا يعرف الشر من الخير يقعُ فيه

والمقصود بيان نماذج من هؤلاء القطّاع ليستدل بهم على غيرهم فمن هؤلاء القطاع: الفتور والسآمة والملل، وهو من أعظم ما يعتري السالكين، وقد يتعاظم أمره ويستفحل حتى يكون سببًا للردة والنكوص والعياذ بالله.

وغالب شأن هذا الفتور من كثرة الفرح بالطاعة وعدم الشكر عليها ورؤية منة الله فيها ومشاهدة النفس في أدائها، قال ابن القيم رحمه الله واصفًا ومحللاً ومعالجًا لهذا الداء: (فإذا نسي السالك نفسه وفرح فرحًا لا يقارنه خوف فليرجع من السير إلى بدايات سلوكه وحِدَّة طلبه، عسى أن يعود إلى سابق ما كان منه من السير الحثيث الذي كانت تسوقه الخشية، فيترك الفتور الذي لابد أن ينتج عن السرور.

فتخلل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم يخرجه من فرض ولم تدخله في محرّم: رجي له أن يعود خيرًا مما كان.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن لهذه القلوب إقبالاً وإدباراً فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل وإن أدبرت فألزموها الفرائض.

وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحِكَم ما لا يعلم تفصيله إلا الله، وبهذا يتبين الصادق من الكاذب، فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه، والصادق ينتظر الفرج ولا ييأس من روح الله ويُلقي نفسه بالباب طريحًا ذليلاً مسكينًا مستكينًا، كالإناء الفارغ الذي لا شيء فيه ألبتة ينتظر أن يضع فيه مالك الإناء وصانعه ما يصلح له، لا بسبب من العبد - وإن كان الافتقار من أعظم الأسباب - لكن ليس هو منك، بل هو الذي منّ عليك به، وجرّدك منك وأخْلاك عنك وهو الذي: ﴿**يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**﴾ [الأنفال: ٢٤].

فإذا رأيته قد أقامك في هذا المقام فاعلم أنه يريد أن يرحمك ويملأ إناءك، فإن وضعت القلب في غير هذا الموضع فاعلم أنه قلب مُضيَّع فسل ربه ومن هو بين أصابعه أن يردّه عليك ويجمع شملك به.

وقد أخبر النبي ﷺ : «**إن لكل عامل شِرَّة ولكل شرة فَتْرة**» فالطالب الجاد لابد من أن تعرض له فترة فيشتاق في تلك الفترة إلى حاله وقت الطلب والاجتهاد.

وربما كانت للسالك بداية ذات نشاط، كان فيها عالي الهمة، فيفيده عند فتوره أن يرجع إلى ذكريات تلك البداية فَتَتَحَدَّد له العزيمة، ويعود إلى دأبه في الشكر.

وكان الجنيد رحمه الله كثير الذكر لبداية سيره، وكان إذا ذكرها يقول: واشوقاه إلى أوقات البداية. يعني لذة أوقات البداية وجمع الهمة على الطلب والسير إلى الله والإعراض عن الخلق). اهـ من تهذيب مدارج السالكين.

أما إذا رَاوَدَتْك السآمةُ في عبادتك، كصلاة أو ذكر أو تلاوة قرآن فلا تُرسل زِمامَ هواك للشيطان محتجًا بقوله ﷺ : «**فو الله إنّ الله لا يملّ حتى تملّوا**»، وقد ذكرنا لك في تمارين العزيمة فقه هذا الحديث ونحوه عن الأئمة الأعلام، فحَرِيٌّ بمن ملّ العبادة أن يعود إلى نفسه هلعًا وخوفًا من أن يكون ذلك من إعراض الله عنه.

وليستحضر في قلبة سوء أدبه مع الله وعدم تعظيمه وقدره حق قدره إذ تطيب نفسه مع شهوات الدنيا ومعافسة الأولاد والزوجات للساعات الطوال ثم هو يُبْتَلى في عبادته بالملل بعد لويحظات معدودات.

وما روي عن بعض السلف من أنهم كانوا يتكدرون لطلوع الفجر لأنه يحول بينهم وبين لذيذ المناجاة فُيحمل على أنهم يحزنون لعدم تواصل لذة المناجاة لا أنهم كانوا يكرهون طلوع الفجر ويقدّمون قيام الليل على الفريضة، فهذا أبعد ما يكون عن هديهم ومتواتر سيرتهم، كيف وهم يعلمون أن قرآن الفجر مشهود تحضره الملائكة وترفع أمره إلى الله.

ومن قطاع الطريق إلى الله: الوساوس والخواطر الرديئة التي ترد على السالك طريقَ الآخرة، وتشمل هذه الخواطر الرديئة ما يرد على المبتلين بالشهوات من التفكير في الصور وفيما يعشقون ومن يهوون وكذا أصحاب الحقد والحسد والأمراض القلبية والآفات النفسية، وكلها انحرافات

سلوكية، أي في السالك طريق الآخرة، ومن أعظمها خطرًا وسواس الشبهات في وجود الله وذاته وصفاته، وهذا مما ابتلى به كثير من شباب هذه العصور لغلبة الأفكار الإلحادية والعلمانية المبنية على المادة والتفسير العلمي لكل الظواهر الكونية وشيوع الفحشاء والشهوات الصارفة للقلوب عن ممارسة عبوديتها في التسليم والإذعان، وتحليلاً للخواطر يمكننا تقسيمها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خواطر الشبهات وهي العارضة في شأن وجود الله وذاته وصفاته وفي قرآنه وأنبيائه ورسله وقضائه وقدره.

النوع الثاني: خواطر الشهوات وهي واردات الذهن من الصور ونماذج المعشوقات.

النوع الثالث: خواطر القلب من آفات وأمراض نفسية كالكبرياء والعجب والحقد والحسد.

وعلاج النوع الأول باستحضار اليقين، وكلامنا مع من من اعتقد وجود الله، أما الملحد فلا خطاب معه، وعندي أن

الإلحاد هو النوع الوحيد من الجنون الذي يؤاخذ الإنسان به، فمن أيقن وجود الله وربوبيته وهيمنته وتصرفه وعدله وحكمته مثَّل هذا اليقين بالشمس يراها ثم يستعرض الشبهات ويمثلها بمن يماريه في رؤيته للشمس، ويجادله في الدليل المفيد لطلوعها، حينئذ يردد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ [إبراهيم: ١٠]، ويردد قوله: آمنت بالله، ويستعيذ بالله من نزغ الشيطان معتصمًا بالله لائذًا بحفظه وكلاءته، متعجبًا من تفاهة شبهته:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

أما النوع الثاني وهو الأعم الأفشى بين الناس، وعلاجه من أصعب العلاجات لكننا نأتي على ذِكْرِ جملةٍ من الفوائد المهمة المُجْتَثَة لهذا المرض من جذوره.

فاعلم أيها الأريب أن الشهوات في أصلها فطرية قدرية لا فكاك للعبد منها، فهو مفطور على الغضب واللذة وحب الطعام والشراب، غير أن هذه الشهوات رُكزت في الجبلة لغايات هي حفظ النفس بالطعام ورد الاعتداء وصيانة

الذات بالغضب وحفظ النسل باللذة (أعني شهوة الفرج) فإذا تعدّت هذه الشهوات غاياتها كانت وبالاً على أصحابها، ولذلك جاء عن النبي ﷺ التنبيه على حفظ الفرج والبطن واللسان وأنه من أعظم أسباب النجاة والفوز .

فإذا علمت ذلك تبين سلطانك على هذه الشهوات، وأن الله عزَّ وجلَّ قد أمّرك في الحقيقة عليها، وأعطاك زمام قيادتها فما عليك إلا ممارسة هذه الإمارة دون خوف أو تباطؤ .

وحسم مادة الشهوات يكون بحسم موارد حياتها، وأهم تلك الموارد حب الدنيا والرغبة في نوال كل ما يراه من جميل فيها، فقطع شجرة الدنيا من القلب كفيل بصرف الهمة مطلقًا عن الدنيا والاهتمام بما تحصل به النجاة.

وهاك بعض الفوائد المعينة على حسم مادة الشهودة وصرف واردات الخواطر الشهوانية :

أولاً: التبرؤ من حول النفس وقوتها والالتجاء والاعتصام والاستعاذة بالله، ومن جليل ما ينبغي ترداده في حق المبتلى بالشهوة « لا حول ولا قوة إلا بالله » ومعناها : لا

تحوّل عن معصية إلا بمعونة من الله ولا قوة على طاعة إلا بتوفيق من الله.

ثانيًا: تذكر المنغّصات: سكرات الموت، نزع الروح، القبر وأهواله، سؤال الملكين، البعث والنشور وأهوال يوم القيامة. والمثول بين يدي الله عاصيًا مذنبًا والنار وأهوالها.

ثالثًا: تذكر المشوقات: كلذة المناجاة وتوفيق الله للطاعة وشرف الولاية والانتساب إلى حزب الله والكرامات اللائقة لأوليائه عند موتهم ودخولهم الجنة وما فيها من الحور العين اللائي لا تقارن الدنيا كلها بأنملة من أنامل الواحدة منهن، ورؤية الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة ورضوانه على أهل الجنة.

رابعًا: تذكر جمال خالق الجمال البشري، الذي سماه الرسول ﷺ جميلاً، فكل جَمال فُتن به المرء لو قُرن بجمال الله عزَّ وجلَّ لتلاشت كل خواطره الرديئة.

خامسًا: تذكرّ مثالب الصور المعشوقة وآفاتها وأمراضها وفساد بواطنها وظواهرها.

سادساً: البعد عن المثيرات كالسير في الطرقات العامة (وخاصة في هذه الأزمنة وفي أماكن الفجور والفسوق) أو مشاهدة التلفاز والفيديو والمجلات والجرائد الساقطة التي تهدف غواية النفوس المطمئنة وتحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.

ومن هذا القبيل عدم المكوث في خلوة إذا طرأ عارض الشهوة، بل يشتغل بالصوارف التي تلهيه عن تلك الخواطر كذكر الله وزيارة الصالحين وحضور مجالس العلم أو خدمة الأهل والمسلمين.

وينصح ابن القيم بما يلي:

﴿١﴾ العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

﴿٢﴾ حياؤك منه.

﴿٣﴾ إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في البيت الذي خلقه لتُسْكِنَه معرفته ومحبته.

﴿٤﴾ خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

﴿٥﴾ إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

﴿٦﴾ خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شررها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

﴿٧﴾ أن تعلم أن هذه الخــواطر بمنزلة الحَبِّ الذي يُلقى للطائر ليصاد به. فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

﴿٨﴾ أن تعلم أن الخواطر الرديئة لا تجتمع مع خواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلاً بل هي ضدها من كل وجه.

﴿٩﴾ أن تعلم أن الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته فيطلب الخلاص فلا يجد إليه سبيلاً فيكون بعيداً عن الفلاح.

﴿١٠﴾ أن تعلم أن الخواطر وادي الحمقى وأماني الجاهلين فلا تثمر إلا الندامة والخزي وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها انسدت عليه عينه وألقته في الأسر الطويل اهـ.

أما النوع الثالث وهو آفات القلب كالحقد والحسد والكبرياء والعُجب، فهو باطن كالإثم، قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٠] وجماع دواء هذه الآفات رؤية عجز النفس وقيامها بالله، ومشاهدة حكمة الله عزَّ وجلَّ وتصرفه في الخلق، فمثل هذا الاستحضار يحول بينه وبين الاعتراض على تقسيم الرزق والنعم، ويحول بينه وبين رؤية النفس وقدرتها، ويئول به الحال إلى التسليم بمنة الله وعدله وحكمته.

وقد تكلم الإمام ابن الجوزي كلامًا نفيسًا عن هذه الآفات في كتابه «الطب الروحاني» فراجعه هناك تجد علاجات تفصيلية لكل آفة ومرض وحسبنا من الألف شاهد مثال واحد.

لكن ابن القيم رحمه الله يلمس مكمن الداء ويصفه وصفًا دقيقًا ثم يقترح العلاج المناسب فيقول: (واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر فيأخذ الفكر فيؤديها إلى التذكر فيؤديها إلى الإرادة فتأخذها الإرادة إلى

الجوارح والعمل فتستحكم فتصير عادة. فردُّها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها، ومعلوم أنه لم يُعط الإنسان إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها وهي تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، على رفع اقبحها وكراهته له ونفرته منه كما قال الصحابة يا رسول الله: إن أحدنا يجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حممة أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «أو قد وجدتموه؟ قالوا: نعم، قال: «ذاك صريح الإيمان»، وفي لفظ «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة». وفيه قولان: أحدهما: أن رده وكراهته وصريحُ الإيمان، والثاني: أن وجوده وإلقاء الشيطان له في نفسه صريح الإيمان، فإنه أنما ألقاه في النفس طلباً لمعارضة الإيمان وإزالته به. وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرَّحا الدائرة التي لا تسكن ولابد لها من شيء تطحنه، فإن وُضع فيها حَبٌّ طحنته وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحَبِّ

الذي يوضع في الرَّحَا ولا تبقى تلك الرحا معطلة قط بل لابد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من يطحن رحاه حبًا يخرج دقيقًا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحَصًا وتْبَنًا ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحينه، اهـ كلامه رحمه الله (الفوائد ١٦١).

فهؤلاء نماذج من قطاع طريقك إلى الله وسفرك في درب الآخرة وسعيك في عتق رقبتك من النار وبذل ثمن الجنة، فاحذر مثل تلك الصوارف وأعد لها عدتها والله الموفق.



تتمة في فهم بعض الوصايا

الأولى: الاجتهاد في العشر الأواخر وأواخر العشر.

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مِئْزَرَه وأحيا ليله وأيقظ أهله**» هذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم: «**أحيا الليل وزيقظ أهله وجَدّ وشد المئزر**» وفي رواية لمسلم عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره**».

وروى أبو نعيم بسند فيه ضعف عن أنس قال: «**كان النبي ﷺ إذا شهد رمضان قام ونام، فإذا كان أربعًا وعشرين لم يدق غُمْضًا**».

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**لا تواصلوا، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**» قالوا فإن تواصل يا رسول الله؟ قال: «**إني لست كهيئتكم إني أبيت لي مُطعمٌ يطعمني وساق يسقيني**».

وأخرج ابن أبي عاصم بإسنادٍ قال عنه ابن رجب إنه

مقارب عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**كان رسول الله ﷺ إذا كان رمضان قام ونام فإذا دخل العشر شد المئزر واجتنب النساء واغتسل بين الأذانين وجعل العشاء سحوراً**»

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «**أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله تعالى**»

تحصّل من هذه الأحاديث بعض السنن المؤكدة التي ينبغي الاعتناء بها في العشر الأواخر وهي من أهم وظائف هذا الشهر الكريم لأنها فورة الوداع ومسك الختام.

وسنلخص لك هذه السنن مع الكلام في فقهها وأسرارها.

أولاً: إحياء الليل كله. ويدل عليه ظاهر قول عائشة رضي الله عنها: أحيا الليل، وفي رواية مضعّفة: «**أحيا الليل كله**» ويشهد لهذا الأمر أيضًا قولها: «**جد**» أي اجتهد وبالغ في الطاعة العمل.

وهذه هي العزيمة اللازمة في أخريات رمضان. فيجب

تقليل النوم قدر الإمكان وجعله في النهار، وشغل الليل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن.

وقد وردت عن بعض السلف آثار في بيان المراد بإحياء الليل، وأنه يحصل بقيام غالبه (وهو قريب من الأول) أو إحياء نصفه، وقيل تحصيل فضيلة الإحياء بساعة، ونُقل عن الشافعي وغيره أن فضيلة الإحياء تحصل بأن يصلي العشاء في جماعة ويعزم على أن يصلي الصبح في جماعة[١] وهذا الإحياء المذكور يشمل كل ليالي رمضان بوجه عام، والعشر الأواخر بوجه خاص، وليلة القدر بأخص.

ومثل هذا الاجتهاد يحتاج إلى الإعداد الذي تكلمنا عنه فيما مضى من الأبواب، وإلى العزيمة والمجاهدة والمكابدة للنوم والتعب من جَهد العبادة.

ويساعد على ذلك قلة الطعام، وتنويع العبادات بين قيام وركوع وسجود وذكر وتلاوة لقرآن، وصحبة العابدين لشحذ الهمم.

---

(١) وفيه نظر، لأنه يتنافى مع مقاصد الحديث وهو ضرورة البذل الزائد المفضى للتأهل للمغفرة العامة. والله أعلم.

وجماع ذلك كله أن يستمطر العون والمدد والألطاف من الله عزَّ وجلَّ، فهو القادر على أن يقيمك بين يديه الدهر كله دون نصب أو رهق أو سآمة.

ثانيًا: إشاعة الأجواء الإيمانية في البيوت بحَثّ الأهل على الاجتهاد في الطاعة والعمل وإيقاظهم في الليل لصلاة التهجد، ويدل ذلك قول عائشة ﵂: «**وأيقظ أهله**».

ثالثًا: شد المئزر والمراد به على الراجح: اعتزال النساء وعدم الجماع والمباشرة والاستمتاع. ووجهه: كون النبي ﷺ معتكفًا في المسجد لطلب ليلة القدر(١)، ويؤخذ من هنا أنه كان يصيب ﷺ من أهله في العشرين من رمضان ثم يعتزل نساءه ويتفرغ لطلب ليلة القدر في العشر الأواخر.

رابعًا: الاعتكاف. قال ابن رجب: وإنما كان يعتكف النبي ﷺ في هذه العشر التي يُطلب فيها ليلة القدر، قطعًا لأشغاله وتفريغًا لباله، وتخليًا لمناجاة ربه وذكره ودعائه، وكان يحتجر حصيرًا يتخلى فيها عن الناس فلا يخالطهم

(١) والمعتكف مأمور بمجانبة النساء.

ولا يشتغل بهم، وذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لا يستحب له مخالطة الناس حتى ولا التعليم علم وإقراء قرآن، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلي بمناجاة ربه وذكره ودعائه، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية، وإنما يكون في المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات، فإن الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهيٌّ عنها. سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجمعة والجماعة؟ قال: هو في النار. فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هي الاعتكاف في المساجد خصوصًا في شهر رمضان وخصوصًا في العشر الأواخر منه كما كان النبي ﷺ يفعله، فالمعتكف قد حبس نفسه على طاعة الله وذكره، وقطع عن نفسه كل شاغل يشغله عنه وعكف بقلبه وقالبه على ربه وما يقربه منه، فما بقي له همٌّ سوى الله وما يرضيه عنه.

فمعنى الاعتكاف وحقيقته: قطع العلائق عن الخلائق للاتصال بخدمة الخالق، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع إلى الله بالكلية على كل حال. كان بعضهم لا يزال منفردًا في بيته خاليًا بربه،

فقيل له: أما تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وهو يقول: «**أنا جليس من ذكرني**» اهـ(١).

خامسًا: إقلال الطعام للغاية، أو الوصال للسحر، وقد اختلف العلماء في هذا الوصال، وقد أجازه الإمام أحمد وإسحق، والصحيح أن الوصال إلى السحر فقط جائز لقوله ﷺ: «**فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر**» رواه البخاري.

والغاية منه كما قال العلماء خواء البطن وشرايين الشهوات من مادة الثوران، وخواء البطن مجلبة لامتلاء القلب بصنوف المعارف، وكلما ازداد الجوعُ وألَمُه رَقَّ الفؤاد ولان وخشع.

قال ابن رجب: ويتأكد تأخير الفطر في الليالي التي تُرجى فيها ليلة القدر، قال زِرُّ بن حبيش في ليلة سبع وعشرين: من استطاع منكم أن يؤخر فطره فليفعل وليفطر علي ضَيَاح اللبن. وضَيَاح اللبن وروي ضَيْح هو اللبن الخاثر الممزوج بالماء(٢).

---

(١) «اللطائف» (٣٤٨).
(٢) «اللطائف» (٣٤٦).

سادساً: الاغتسال بين المغرب والعشاء كل ليلة من العشر الأواخر وقد وردت فيه بعض الأحاديث الضعيفة والآثار المستفيضة عن سلف هذه الأمة في التنظيف والتزين والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن. وهي مشموله بالنصوص العامة الآمرة بالتنظّف والتزين والتطيب. والمستقريء لسيرة النبي ﷺ والصحابة والسلف يجزم بحرصهم على الاغتسال في أزمنة العبادة ومواسم الطاعة.

واعلم أيها النابه أن كل هذه الوظائف تحوم حول تحصيل وموافقة ليلة القدر التي قال عنها النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه» رواه البخاري، وهي ليلة حَريٌّ بالمسلم أن يستميت في تحصيل فضلها وثوابها، قال عنها الله عزَّ وجلَّ: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ ﴾ [القدر: ٣] أي العمل فيها أفضل من العمل في ألف شهر وهو ما يقارب ثمانين سنة أو أكثر.

ولا تنفع الأماني والأحلام في إثبات تحرّيك لها، بل لابد من التشمير، وأن تُرِيَ الله من نفسك خيراً، حتى يرى

إقبالك فيَقْبَلَكَ واجتهادَك فيلطُف بمقامك ويهبَكَ منشور الولاية ويضع اسمك في ديوان العتقاء من النار.

أما تعيين ليلة القدر فهي ممكنة على الراجح كما قال النووي ووافقه ابن حجر رحمها الله، وهذا لمن كشفها الله له، بل ثوابها لا يحصل إلا لمن كُشفت له كما رجح الأكثر، وذهب الطبري وابن العربي وجماعة إلى أن ثوابها يحصل لمن اتفق له قيامها وإن لم يظهر له شيء، وهذا مفرّع على أن ليلة القدر لها علامة أم لا؟ فذهب البعض إلى وجود تلك العلامات ومنها أن يرى كل شيء ساجداً، وقيل الأنوار في كل مكان ساطعة حتى في المواضع المظلمة، وقيل يسمع سلاماً أو خطاباً من الملائكة، وقيل علامتها استجابة دعاء من وفقت له، واختار الطبري أن جميع ذلك غير لازم وأنه لا يشترط لحصولها رؤية شيء ولا سماعه.

واختار ابن حجر رحمه الله أن لها علامة وأن شرط حصول ثوابها الكامل الموعود به يكون لمن عَلِمَها فقط لا لمن اتفق قيامه فيها وإن حصل ثواباً جزيلاً بقيامه ابتغاءها،

ولو علم بها أحد هل يذكرها لغيره؟ استنبط تقي الدين السبكي من قوله ﷺ: «خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحي فلان وفلان فرُفِعَت وعسى أن يكون خيراً فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة» رواه البخاري، استنبط منه استحباب كتمان ليلة القدر لمن رآها قال: ووجهُ الدلالة أن الله قدر لنبيه أنه لم يُخبر بها، والخير كله فيما قَدَّر له، فيستحب اتباعه في ذلك، وفيما قاله بحث ونظر، وذكر في شرح المنهاج ذلك عن الحاوي قال: والحكمة فيها أنها كرامة، والكرامة ينبغي كتمانها بلا خلاف بين أهل الطريق من جهة رؤية النفس فلا يأمن السَّلب، ومن جهة ألا يأمن الرياء، ومن جهة الأدب فلا يتشاغل عن الشكر لله بالنظر إليها وذكرها للناس، ومن جهة أنه لا يأمن الحسد فيوقع غيره في المحذور، ويُسْتَأْنسُ له بقول يعقوب عليه السلام: ﴿ **قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ** ﴾ [يوسف : ٥]. وهذا هو الأولى في التوجيه. وبالله التوفيق.

الثانية: لا تهمل الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإنها من صميم رسالتك في هذا الوجود، فوق كون هذا الأمر ثمرة النُّسُك وتعظيم الأمر والنهي، وتركه مُؤْذنٌ بجعل الطاعات والعبادات بلا طعم أو ثمرة، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه فتدعونه فلا يستجاب لكم» رواه الترمذي بإسناد صحيح.

وما ثمرة صف الأقدام أمام رب يتجاوز الناس حرماته ويجاهرونه ويبارزونه بالمعصية وأنت لا تغضب له؟

فإذا عجزت عن الدعوة إليه ودلالة الناس عليه وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فاعتذر إلى الله عزَّ وجلَّ بإلقاء النصيحة ولا عليك أن يتركها الناس ﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** (١٦٤) ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

الثالثة: لو كنت إمامًا أو خطيبًا أو داعيًا فاجهد أن

يكون لك دورٌ مع الناس في وصولهم إلى خالقهم ومليكهم، فالدلالة على الله مهنة الأنبياء والرسل، وما إخال الدال على الله محجوبًا عن الدخول مع الداخلين.

ثم لا تنس تشديد الحساب على نفسك في طاعاتها، خاصة فيما تأتيه جهرة كإمامةٍ أو خطابة، حتى تنقي بواطنك من والجات الهوى.

الرابعة: لو ضاع منك معظم الشهر فلا تحرم نفسك الاجتهاد في باقيه، ولا يلقينّ الشيطان في قلبك اليأس فتقعد عن الاجتهاد، فلا يبعد أن تُرى مع المشمّرين فيهبك الله لهم، فتسعد:

من لي بمثل سيرك المدلّلِ تمشي الهُوَيْنى وتَجِي في الأوَّلِ

الخامسة: إذا لم يقع عليك الهمُّ من خوف الرد وعدم القبول: فهو أمارة سوء. فمن صفات المتقين أنهم: ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال مالك بن دينار: الخوف على العمل ألا

يُتَقَبَّل أشد من العمل، وقال عطاء السلمي: الحذر: الاتقاء على العمل ألا يكون لله، وقال عبد العزيز بن أبي روّاد: أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمّ أيُقبل منهم أم لا؟ وقال ابن رجب: كان بعض السلف يظهر عليه الحزن يوم عيد الفطر، فيقال له: إنه يوم فرح وسرور، فيقول: صدقتهم، ولكني عبد أمرني مولاي أن أعمل له عملاً فلا أدري أيقبله مني أم لا؟

روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن كان ينادي في آخر ليلة من شهر رمضان: يا ليت شعري من هذا المقبول فنهنيه؟ ومن هذا المحروم فنعزيه:

رحل الشهرُ والهَفَاهُ وانصرما ... واختص بالفوز في الجنات من خدَمَا
وأصبح الغافل المسكين منكسراً ... مثلي فيا ويحه يا عُظْمَ ما حُرِما
من فاته الزرع في وقت البذار فما ... تراه يحصُد إلا الهم والندما

السادسة: لا تجزع من هول التبعات وضيق الأوقات بالعمل والدراسة ورعاية الأهل . . إلى آخر هذه المنظومة، وكذلك المرأة يَهُوْلَنَّها ضخامة ما تقوم به من تربية

الأولاد ورعاية البيت، فكل هذا وإن تفاقم لا يمنع من القيام بواجب الخدمة للمعبود والبذل في هذا الشهر.

وسبب تحاشي أولئك أنهم متّكلون على قوتهم معتمدون على مهارتهم، هنا يُوكَلُون إلى ضعفهم وعورتهم.

أما صدق اللَّجْأ إلى الله فهو كفيل بقلب قوانين الزمان والجهد والقوة، فيضحى اليوم مديداً دون أن تشعر، وقوتك التي كانت تخور أما الأحمال الثقال تراها عند الطاعات وثابة.

أما تعجب من الصحابة كيف يغزون وزادهم تمرات يمصونها فيُقِمْنَ أصلابَهم أمام أعدائهم.

بالله ثِقْ وله أَنِبْ وبه اسْتَعِنْ   فإذا فعلتَ فأنتَ خيَّرُ مُعانِ

السابعة: لا تُخْلِ الأوقات من عمل نافع، وقيدّ عندك البدائل حتى إذا ما داخلت نفسك السآمة من عمل كان عندك غيره ليشغلك.

ونقترح عليك هذا الجدول في رمضان:

١- تلاوة خمسة أجزاء على الأقل يوميًا.

٢- التواجد في المسجد قبل الأذان لكل صلاة.

٣- استيفاء كل السنن الراتبة وغير الراتبة.

٤- استيفاء الخشوع في الفرائض والنوافل ومحاسبة النفس قبل الصلاة، وبعدها.

٥- التراويح والتهجد ثلاث ساعات على الأقل كل ليلة، وإذا كنت تؤدي التراويح جماعة فاجعل لبيتك قسطًا من صلاة الليل.

٦- دوام الذكر باللسان والقلب وخاصة أذكار الصباح والمساء.

٧- دوام الدعاء والتضرع.

٨- عدم إخلاء ساعة في يوم أو ليل في رمضان من نافلة خلا أوقات الكراهة.

٩- الضحى في المسجد بعد الفجر.

١٠- الصدقة بمبلغ كل يوم.

فهذا المقترح – يا باغي الخير – أقل ما يمكن تصوره

لمجتهدٍ في رمضان، وهو معدود على مذهب السلف (من المقصرين أو المفرطين)، فاعْلُ بهمتك وتزود من الطاعات ما به تنال صَكَ العتق من النار، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم.

الثامنة: الاستعداد لشهر رمضان والشوق له وبلغ زمانه ينبغي أن يسبق رمضان بأشهر عديدة، فيوطن نفسه على المعاني التي ذكرناها في الرسالة ويدرب جسده على تمارين العزيمة التي تحدثنا عنها ويؤمل المغفرة والعتق فيه فيكون ممن أعد للشهر عدته.

قال ابن رجب: قال بعض السلف كانوا يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم رمضان ثم يدعو الله ستة أشهر أخرى أن يُتَقَبَّل منهم. اهـ.

ويقتضي هذا النقل عن السلف أنهم كانوا يدعون في رمضان أن يَتَقَبَّل الله منهم أو يدعون بأن يبلغهم رمضان اللاحق، وهذا من أجدر ما يأمله الإنسان من ربه أن يتقبل منه الطاعة وأن يوفقه إلى غيرها.

أيها السالك طريق الآخرة: ها نحن قد رددنا العَجُزَ إلى

الصدر، وأكدنا لك المعنى بأسهل عبارة، فإن آنست مما ذكرناه حافزاً لهمتك فدونك الميدان أثر نقعه وتوسّط جمعه. وإلا فتدبر قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَنْ أراد الآخرة وسعىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئك كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً (١٩) كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاء مِنْ عطاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّك مَحْظُوراً (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بعْضٍ وَللآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ [الإسراء: ١٩].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الفهرس

الموضـوع

الموضـوع صفحة

الموضــوع | صفحة